

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بجرجا

بلاغة التوجيه النبوي إلى محبة الله ورسوله

إعداد

د/ أحمد حسن علي محمد

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد بالكلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر باخوب سبيلاً ، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلاً ، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً لطلبها وتحصيلاً ، فسبحان من صرفَ عليها القلوب كما يشاء ، ولما يشاء بقدرته ، وصرفها أنواعاً وأقساماً بين بريته ، فجعل كل محبوب لخبه نصيباً ، مخطئاً كان في محبته أو مصيباً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقر بربوبيته شاهداً بوحدانيته منقاداً إليه بمحبته ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أقرب خلقه إليه وسيلة وأحبهم إليه وأكرمهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد

فإن المحبة شعور فطري خلقه الله عز وجل في الإنسان لتعمر به الحياة ، فالحب هو سر الوجود بل هو روح الوجود ، لا قيمة للإنسان بدونه ، دون هذه العاطفة يعيش الإنسان حياة الأنعام بل الأنعام أحسن حالاً منه بالحب يرقى الإنسان إلى أعلى المنازل ، ويسمو بالروح إلى أرقى الدرجات ، " فالحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له ، فتتحرك محب الرحمن ومحب القرآن ، ومحب العلم والإيمان ، ومحب المتاع والأثمان، ومحب الأوثان والصلبان ، فتشير من كل قلب حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء ، فيتتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره ^(١) .

(١) ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان جـ ٢ ص ١٢٧ ط مكتبة دار التراث .

ولما كانت المحبة بهذه المتزلة جاء الإسلام ليهذبها ويجعل رباط المسلم فيها مرتبطاً بالله عز وجل ، فإن أحب أحبَّ لله ، وإن أبغض أبغضَ الله ، وإن أعطى أعطى الله ، وإن منع منعَ الله ، شعاره فيها " {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١٦٢) سورة الأنعام " فمدار حياة المسلم كلها حول قطب المحبة ، محبته لله هي التي تدفعه إلى طاعته ، ومحبته لرسوله هي التي تسوقه إلى اتباع سنته ، ومحبته للصالحين من عباد الله هي التي تقوده إلى بذل روح الود لهم وخفض جناح الذل عندهم حسبة لله وامتنالاً لأمر نبيه .

لقد ارتبطت علاقة المحبة بالإيمان ارتباطاً وثيقاً حتى صارت شرطاً من شروط الإيمان ، وركناً من أركانه لا يُستكمل الإيمان إلا بها ، وأعلى درجات هذه المحبة محبة الله ورسوله ، ولذا يقول صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " (١) .

بل المحبة هي أوثق عرى الإيمان ، يدل على ذلك الحديث الذي رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر يا أبا ذر أي عرى الإيمان أوثق ؟ قال الله ورسوله أعلم قال : المولاة في الله والحب في الله والبغض في الله " (٢) .

بل هي منزلة من منازل السائرين إلى الله عز وجل والسالكين طريق الآخرة تحدث عنها ابن القيم ومن قبله الإمام الهروي ضمن منازل السالكين .

(١) أخرجه مسلم عن أنس في كتاب الإيمان باب وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل رقم ٧٠ وسيأتي الحديث عنه خلال البحث .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧٠/٧ رقم ٩٥١٣ ط دار الكتب العلمية تحقيق / محمد السعيد بسيوني .

يقول ابن القيم : " ومن منازل : إياك نعبد وإياك نستعين " منزلة الحبة ، وهي المتزلة التي تنافس فيها المتنافسون ، وإليها شخص العاملون ، وإلى علمها شَمَّر المتسابقون ، وعليها تفانى الخبون وبروح نسيمها تروّح العابدون ، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون ، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات ... وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح له " (١)

ولما كانت الحبة من أرقى المنازل كانت عرضة لادعاء المدعين ، فما أكثر المدعين حبة الله ومحبة رسوله ، لكن عند التحقيق يتراجع عنها المفلسون ولا يثبت فيها إلا الواصلون .

يقول ابن القيم : " لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقه الشجي فتنوع المدعون في الشهود فقليل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة قوله : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران : ٣١ . فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه " (٢)

لقد غني القرآن الكريم بالحديث عن هذه المتزلة ، وعنيت السنة النبوية كذلك بما أياها عناية فكثر حديثه صلى الله عليه وسلم عنها مبيناً فضل هذه المتزلة ومدى ارتباطها بالإيمان ، وكيفية تحقيق هذه المتزلة وكيف تكون حدودها وضوابطها .

(١) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ٥٠٩ تحقيق وتهذيب عبد المنعم صالح العلي ط - دار الغد العربي .

(٢) التهذيب ص ٥١٠ .

وكلامه صلى الله عليه وسلم - على العموم - كلام حُفَّ بالعصمة وشُدَّ بالتأييد ، وألقى الله عليه الحبة وغشاه بالقبول ، فهو كلام يغوص في أعماق النفس البشرية ويؤثر فيها تأثيراً كبيراً .

وكلامه صلى الله عليه وسلم - على الخصوص - في هذه المتزلة " منزلة الحبة " كلام يأخذ بالألباب، ويسحر النفوس ؛ لأنه كلام عن عاطفة يشترك فيها جميع البشر، والكلام فيها - وخاصة عند المحبين - يصادف هوى في النفس، ويشفي غليلاً في الفؤاد ؛ لأنه حديث النفس إلى النفس ، وهُتاف الروح إلى الروح .

لذا وجدت نفسي مشدوداً إلى كلامه صلى الله عليه وسلم عن هذه المتزلة، واشتاق نفسي للكتابة حول هذا الموضوع - رجاء أن أكون من أهل هذه المتزلة فأحشر في زمرة المحبين لله ورسوله - فاستخرت الله سبحانه وتعالى ودعوته أن يوفقني في هذا الأمر، وأن يجعله خالصاً لوجهه .

ولما كان التخصص يحتم على الكاتب أن ينظر إلى الموضوع من زاوية تخصصه اتخذت الدراسة في هذا الكتاب طريقها من الوجهة البلاغية ، فسُلطت الضوء على مادة البحث - وهي حديثه صلى الله عليه وسلم عن محبة الله ورسوله - لتميط اللثام عن بعض جوانب بلاغته صلى الله عليه وسلم وروعة بيانه خلال حديثه عن هذه المتزلة ، وتكشف النقاب عن كيفية توظيفه صلى الله عليه وسلم لأساليب البيان في بيان حدود وضوابط هذه العاطفة ، وكيفية توجيهه صلى الله عليه وسلم لهذه العاطفة وجعلها الحرك القوي الذي يدفع بالمؤمن في طريقه إلى ربه، فتجعل محور حياته كلها محبة الله ورسوله ، ثم بلاغته في التوجيه إلى أسباب تحصيل محبة الله لنا .

وقد سارت الدراسة حول هذا الموضوع في تمهيد وفصلين :

كان الحديث في **التمهيد** عن ماهية المحبة وأنواعها ومراتبها وعلاماتها وشواهدا ومدى ارتباطها بالعبودية . وتحدثت فيه عن ماهية المحبة وأنواعها واستحقاق الله لها وارتباطها بالعبودية ، ومدى ارتباط المحبة بالعبودية وعلاماتها وأسباب تحصيلها .

وذلك ليكون هذا التمهيد بمثابة مدخل إلى الدراسة البلاغية .

الفصل الأول : عن بلاغته صلى الله عليه وسلم في بيان فضل محبة الله ومحبة رسوله ومحبة آل بيته ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول: وركزت الدراسة في هذا الفصل على توظيفه صلى الله عليه وسلم لكل ما أوتيته من فصاحة وبلاغة في بيان ارتباط محبة الله ورسوله ومحبة آل بيته بالعقيدة ، وتبوءها من الإيمان مكاناً عالياً .

المبحث الثاني: بلاغته ﷺ في بيان فضل محبة آل بيته .

الفصل الثاني : بلاغته صلى الله عليه وسلم في بيان محبة الله لعباده وأسباب تحصيلها وفيه مبحثان :

الأول: الطاعة سبيل إلى نيل محبة الله

الثاني: علامة محبة الله تعالى للعبد

ثم **الخاتمة** وذكرت فيها أهم الوسائل التي استخدمها صلى الله عليه وسلم في بيان هذه المتزلة .

ولقد بذلت في هذا البحث جهدي وطاقتي محاولاً استجلاء جانب - ولو بسيط من جوانب بلاغته صلى الله عليه وسلم حول هذه القضية المهمة، فإن كنت قد وفقت فله الحمد والمنة ، وإن كانت الأخرى فأسأل الله المغفرة ،

وحسبي فيه صدق النية وصلاح القصد.

وأنت أيها القارئ لك من هذا الكتاب غنمه وعلى غرمه، فإن صادف

منك قبولاً فإمساك بمعروف وإلا فتسريح بإحسان.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبي

المؤلف

د / أحمد حسن علي محمد

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة

بكلية اللغة العربية بجرجا

تمهيد

ماهية المحبة وأنواعها واستحقاق الله لها.

المحبة في اللغة :

جاء في لسان العرب : الحُبُّ نقيض البغض ، والحُبُّ الوداد والمحبة وكذلك الحِبُّ بالكسر ، وأحبه فهو محبٌ ومحبوب ، وحبّه يجبه بالكسر فهو محبوب ، وحبى سبويه حبّه وأحبه بمعنى أحبه الله فهو محبوب^(١) وقال الراغب في مفرداته : " وحبّة القلب تشبيهاً بالمحبة في الهيئة وحببت فلاناً بمعنى أحببته ، وأحببت فلاناً جعلت قلبي معرضاً لحيه ، والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً"^(٢)

وأصل المحبة الصفاء ، لأن العرب تقول لصفاء الأسنان ونضارتها حببُ الأسنان ، وقيل مأخوذ من الحَبَاب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد . وقيل مشتقة من اللزوم والثبيت ومنه حبُّ البعير إذا برك فلم يقم ، كأن المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالاً ، وقيل مأخوذة من الحَبِّ جمع حبّه وهو لباب الشيء وخالصة وأصله ، فإن الحَبَّ أصل نبات الشجر، وقيل بل هي مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه ويقال ثمرته فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب^(٣)

المحبة في الاصطلاح : فلها تعريفات كثيرة ، يقول ابن القيم : "وأما كلام الناس في حدها فكثير، فقيل هي الميل الدائم بالقلب الهائم وقيل إبتار

(١) لسان العرب مادة حب جـ ١ ص ٢٩٤ ط دار صادر بيروت الطبعة الأولى .

(٢) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٠٥ ط دار المعرفة بيروت لبنان .

(٣) يراجع روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ١٦ تحقيق عبدالله المنشاوي ط مكتبة الإيمان

المحبوب على جميع المصحوب ، وقيل استيلاء ذكر المحبوب على قلب الحب ،
وقيل حقيقتها أن تمب كلك لمن أحبته فلا يبقى منك شيء ... ، وقيل هي
بذلك الجهود فيما يرضي الحبيب ، وقيل هي سكون بلا اضطراب واضطراب
بلا سكون ، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى حبيبه ^(١)

وقال أبو السعود في تفسيره : " هي ميل القلب من الحب استعير حبة
القلب ثم اشتق منه الحب .. ثم قال : ومحبة الله العبد سبحانه إرادة طاعته في
أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مرضيه ^(٢)

وقال البيضاوي : " المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال إدراك فيه بحيث
يحملها على ما يقربها إليه " ^(٣)

وقال الإمام الغزالي : " محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل و
المعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى
يشاهده كأنه يراه بقلبه ، وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى إدراك هذا الكمال
الذي هو مفلس عنه فاقد له ^(٤)

أنواع المحبة :

يقول ابن القيم : ^(٥)

وهنا أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها :

(١) روضة الخبين ص ١٨

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبي السعود جـ ١ ص ١٨٥

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي جـ ١ ص ١٥٧ - مطبعة الحلبي
بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .

(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي جـ ٤ ص ٤٧٤ ط دار المنار تحقيق محمد عبد الملك الزغبي .

(٥) الداء والدواء لابن القيم ص ١٩٦ تحقيق لجنة التحقيق بمؤسسة الهدى . طبعة دار التقوى للتراث
الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

الأول : محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحب الله وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث : الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب ولا تستقيم محبة ما يجب إلا بالحب فيه ولله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه ، فقد اتخذ نداءً من دون الله وهذه محبة المشركين .

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهو المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تدم إلا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ سورة المنافقون (٩) بين أن المستحق للمحبة وحده هو الله تعالى:

لا شك أننا عندما نتكلم عن المحبة لا نعني به إلا محبة الله عز وجل وما تعلق بها من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته وكل شيء يقربنا إلى محبة الله عز وجل ، فالأصل في المحبة التي يُعنى بها البحث هنا هي محبة الله عز وجل ، والله سبحانه وتعالى هو المستحق لهذه المحبة وحده وذلك لأسباب :

(١) تفضله سبحانه وتعالى علينا بالإيجاد وخلقنا لنا بعد العدم :

فالإنسان بطبيعته يحب نفسه ويجب بقاءه ودوام وجوده ، ويكره ما هو ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان ، وهذا يقتضي غاية محبة الله تعالى ، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته ، وإنما وجوده ودوامه من الله تعالى ، فهو المخترع الموجد له المبقي له ، فوجبت محبته على خلقه ولا يجيد عنها إلا جاهل بنفسه وبربه .

ولذلك يقول الحسن البصري " من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى هو به قوام نفسه ، ومعلوم أن المتلى بحرّ الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر^(١)

(٢) إحسانه - سبحانه - إينا :

وهو أيضاً من أقوى الأسباب الداعية إلى محبته تعالى ، فالإنسان بطبعه يحب من أحسن إليه فواساه بماله، ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصره وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه، وهذا بعينه يوجب محبة الله تعالى على عباده ، فإن الإنسان لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط وأنواع إحسانه لا تعد ولا تحصى كما أخبر سبحانه فقال " {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} النحل (١٨) فالمحسن أولاً وآخراً هو الله تعالى ، والبشر أسباب وآلات لتوصيل الإحسان إليك ، ولا يتصور الإحسان من البشر إلا بالجاز .

(١) يراجع إحياء علوم الدين للغزالي جـ٤ ص ٤٣٥ .

وبيان ذلك أن نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك
وممكنك من التصرف فيها، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو خطأ، لأنه وإن
أحسن إليك ظاهراً فمن أنعم عليك بالخلق وتمليك المال ، ومن الذي حبيبك إليه
وصرف وجهه إليك وأبقى في نفسه أن صلاح دينه ودينه في الإحسان إليك ؟
فالمحسن إذن هو الذي اضطره وسخره لك ، فهو جار مجرى خازن
أمير أمره أن يسلم خلعتة إلى فلان من الناس ، فإن الخازن لا يُرى محسناً
بتسليم خلعة الأمير ، لأنه مضطر إلى طاعته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم
ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى يسلط
عليه الدواعي ويلقي في نفسه أن حظّه في بذل ذلك فيبذله ، فينبغي للإنسان أن
يصرف كل محبته لله لأنه هو المحسن أولاً وآخراً^(١)

(٣) الجمال والكمال والجلال الإلهي :

إن المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب في الطباع فإنه إذا
بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عابد عادل رفيق بالناس وهو في دولة بعيدة
فإنك تحبه وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه ، فهذا حب المحسن من حيث إنه
محسن فضلاً عن أن يكون محسناً إليك، وهذا يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي
ألا يحب غيره إلا بحيث يتعلق منه بسبب ؛ فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل
كافة بإيجادهم والتفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى .

إذن: فلم لا نحب ربنا وقد أوجدنا من عدم وأمدنا بأسباب حياتنا ، وما
من نعمة في أيدينا إلا من الله عز وجل؟ ولم لا نحبّه وله صفات الكمال والجمال

(١) يراجع إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٤٣٦ ، ٤٣٧

والجلال؟^(٢) ومن هذا شأنه وهذه صفته وذاك عطاؤه كيف لا يجب؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "القلب لا يصلح ولا يفلح ويُسرّ ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه ووجهه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ، إذ منه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه ، وبذلك يحصل الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله تعالى ولا يقدر على فعل ذلك له إلا الله فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة " {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} سورة الفاتحة (٥) " (٣) .

(٢) يراجع الحجة في القرآن والسنة تأليف د / حسني أمين مصري ص ٥٤ مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .

(٣) إيقاظ أولى المهمم العالية ص ١٨٤ تأليف عبد العزيز السلطان مطابع خالد بالرياض .

ارتباط المحبة بالعبودية وعلاماتها وأسباب تحصيلها

الكلام في منزلة المحبة ليس كلاماً في أمر من الأمور الفضول التي يثاب فاعلها ولا يآثم تاركها ، بل هو كلامٌ على أصل من أصول الدين لارتباطها بالعبودية لا يمكن أن تنفصل عنها ولا يقبل عمل بغيرها .

يقول ابن القيم : " فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولتعطلت منازل السير إلى الله ، فإنها روح كل مقام ومنزلة كل عمل ، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه ، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص فيها ، بل هي حقيقة الإخلاص بل هي نفسها الإسلام ، فإن الاستسلام بالذل والحب والطاعة ، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة ، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله . فإن الإله هو الذي يألهه العباد حباً وذكلاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة .

وأصل " التأله " التعبد والتعبد آخر مراتب الحب ، يقال عبّده الحب وتيممه ، إذا ملكه وذلكه محبوبه .

والمحبة حقيقة العبودية، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء ؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر الخبير؟ وكذلك الزهد في الحقيقة هو زهد الخبير ؛ فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لخبته . فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب معطل لذلك كله وحجابه أكثر الحجب وقلبه أقسى القلوب وأبعدها عن الله . وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام . فإن الخلة كمال المحبة ^(١)

إذن فالمقصود هو أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراف بالله في محبته ، بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ، فإن محبة الرسول

(١) تهذيب مدارج السالكين للإمام ابن القيم . هذبه عبد المنعم صالح العلي ص ٥١٨ ، ٥١٩ ط دار الغد العربي .

صلى الله عليه وسلم ، بل وتقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله وكذلك كل حب في الله والله كحب الإخوان والصالحين فإنه متفرع من محبة الله تعالى وشرط من شروط استكمال الإيمان .

علامات المحبة وشواهدا :

بعد أن اتضحت مراتب المحبة وبان الفرق بين حال المحبين يجدر أن نشير إلى علامات هذه المحبة ، إذ إنها ليست دعوة يدعيها كل أحد دون أن يبرهن عليها .

يقول الإمام ابن القيم : "لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى فلو يعطي الناس بدعواهم لادعى الخليلُ حُرقة الشجى .

فتنوع المدعون في الشهود فقليل : لا تقبل هذه الدعوى إلا بيينة قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } سورة آل عمران (٣١) " فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب ﷺ في أقواله وأفعاله وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة بتزكية قوله تعالى : { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } سورة المائدة (٥٤) " فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون فقليل لهم إن نفوس المحبين وأمواهم ليست لهم فهلما إلى بيعة { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ } سورة التوبة (١١١) فلما عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن وجلالة من جرى على يديه عقد التبائع عرفوا قدر السلعة ورأوا أن من أعظم العبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس فعقدوا معه بيعة الرضوان .

فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم : قد صارت نفوسكم وأمواكم لنا رددناها عليكم أو فر ما كانت وأضعافها معها: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} سورة آل عمران (١٦٩) .

العلامة الأولى: كثرة ذكر الخبواب واللهج به فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ، ولهذا أمر الله تعالى عباده بذكره على جميع الأحوال حتى في حال أخوف ما يكونون وهم في الحرب فقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } سورة الأنفال (٤٥) وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يجبس المحب لسانه على ذكره ثم يجبس قلبه على لسانه ثم يجبس قلبه ولسانه على شهود مذكورة.

العلامة الثانية: الانقياد لأمر المحبوب فمن علامة المحبة الانقياد لأمر المحبوب وإيثاره على أمر المحب بل يتحد مراد المحب والمحبوب وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحب واحداً ، فليس بمحب صادق من له إرادة تخالف مراد محبوبه منه .

العلامة الثالثة: قلة صبر المحب عن المحبوب إذ ينصرف بصره إلى الصبر على طاعته والصبر عن معصيته ، وأما الصبر عنه فصبر الفارغ عن محبته المشغول بغيره كما قيل :

والصبر يحمد في المواطن كلها وعن الحبيب فإنه لا يحمد

العلامة الرابعة: بذل ما يقدر عليه لخبوبه فالمحب يبذل في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع بدون المحبة ، وللمحب في هذا ثلاثة أحوال :

أحدها: بذل ذلك تكلفاً ومشقة هذا في أول الأمر فإذا قويت المحبة بذل رضا وطوعاً ، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذل سؤلاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب حتى إنه ليبذل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يقون رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرعوا دونه .

ومن أثر محبوبه بنفسه فهو له بماله أشد إيثاراً ، كما قال تعالى : {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ} سورة الأحزاب(٦) ولا يتم لهم مقام الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم فضلاً عن آبائهم وآبائهم .

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله فكيف بمحبته سبحانه؟ وهذا النوع من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعاً وإن وجد في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذلك في الحقيقة إنما هو لمحبة غرض منه .

العلامة الخامسة : إيثار الوحدة والخلوة والتفرد به عن الناس أي الأُنس بالخلوة والتفرد به عن الناس وكأن المحبة قد ثبتت على ذلك فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرده فإنه إن ظفر بمحبوبه أحب خلوته وكره من يدخل بينهما غاية الكراهة^(١)

فإذاً علامة المحبة كمال الأُنس بمناجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلوة به، وعلامة الأُنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة ، فالحُب من لا يطمئن إلا بمحبوبه ، ولذا قال قتادة في قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} سورة الرعد(٢٨) قال هشت إليه واستأنست به ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه " من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر"^(٢).

الأسباب الجالبة للمحبة :

أصل المحبة الإلهية موجود عند كل مؤمن ؛ لأن المحبة من مستلزمات الإيمان التي لا يوجد إيمان بدونها ، لكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة ؛ إذ

(١) يراجع روضة الخبير لابن القيم ص ١٩٤ - ٢٠٨ .

(٢) إحياء علوم الدين ج٤ ص ٤٨٠ .

الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل ، وهؤلاء هم أهل السلامة والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون هم المقربون (١)

ولعلك بعدُ تطمح في معرفة طريق العارفين المقربين وكيف نالوا هذا المقام ، وما هي الأسباب الجالبة لهذه المحبة ، ويدلل على هذا الطريق الإمام ابن القيم فيقول :

الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها عشرة :

أولها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة .

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع : إيثار محابته على محابك عند غلبان الهوى ، والتسليم إلى محابته وإن صعب المرتقى .

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبادئها .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة ، فإنها داعية

(١) يراجع إحياء علوم الدين ج٤ ص ٤٦١ .

إلى محبته.

السابع : - وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى،

وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبادات .

الثامن: الخلوة به وقت التزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب

والتأدب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطيب ثمرات كلامهم كما تنتقى

أطيب الثمر .

العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبوب إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب

وملاك ذلك كله أمرين: استعداد الروح لهذا الشأن ، وانفتاح عين البصيرة^(١)

آثار المحبة :

بعد أن اتضح للقارئ الكريم ماهية المحبة ومراتبها والأسباب الجالبة لها

يجدر أن نختتم الحديث عنها بالآثار المترتبة عليها.

فمضى عرف الإنسان ماهية المحبة وسلك الأسباب الجالبة لها وترقى في

مراتبها فلا بد أن يدرك آثارها.

ومن أعظم آثار المحبة الشوق إلى الله تعالى ورجاء لقائه {مَنْ كَانَ يَرْجُو

لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ} سورة العنكبوت(٥)

وشوق المحب لله تعالى ناتج عن معرفته بالله فمن عرف الله اشتاق إليه.

يقول ابن القيم " والشوق أثر من آثار المحبة وحكم من أحكامها فإنه سفر

القلب إلى المحبوب في كل حال . وقيل هو احتياج القلب إلى لقاء المحبوب .
والحبة أعلى منه لأن الشوق عنها يتولد وعلى قدرها يقوى ويضعف (١)
- أيضاً من آثارها :

الشوق إلى الجنة . وهذا الشوق لا ينافي الشوق إلى الله فإن أطيّب ما في
الجنة قربه ورؤيته وسماع كلامه ورضاه .

نعم الشوق إلى الأكل والشرب والخور العين في الجنة ناقص جداً بالنسبة
إلى شوق المحبين إلى رؤية الله تعالى بل لا نسبة ألبتة

لكنه شوق يبعث الأمل فيحفز إلى العمل ويفرح الحزين ويعين المؤمن
على قطع الطريق ، ليستريح هناك تحت شجرة طوبى ويسعد بلقاء ربه وسماع
كلامه .

الفصل الأول

بلاغته ﷺ في بيان فضل محبة الله ومحبة رسوله وآل بيته

محبة الله ورسوله أعلى مقامات العبادة بل لا تتحقق العبادة إلا بها ، ولذا يقول الإمام الغزالي " إن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال .. ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ثم قال " اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع للحب وثمرته ، فلا بد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطبع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله قوله تعالى : { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } سورة المائدة (٥٤) " وقوله " { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } سورة البقرة (١٦٥) " (١) .

وسوف نتعرض بإذن الله تعالى في هذا الفصل لبعض الأحاديث التي بينت وجوب محبة الله ورسوله وآل بيته على المؤمنين .

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي جـ ٤ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦

المبحث الأول

في بيان فضل محبة الله ورسوله ووجوبها على المؤمنين

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" (١)

هذا الحديث الشريف يبين أن محبة الله ورسوله من أعظم درجات القرب والوصول إذ أصل المحبة هي الميل لما يوافق المحبوب ، . ولما كانت الطاعات لا قيمة لها إلا إذا استشعرها القلب وأحس بها جعل النبي ﷺ حب الله ورسوله وكل ما يتعلق بهما علامة على وجود الإيمان والاستلذاذ بحلاوته .

ولذلك يقول الإمام العيني عن هذا الحديث " قال النووي هذا حديث عظيم وأصل من أصول الإسلام ، قلت كيف لا وفيه محبة الله ورسوله التي هي أصل الإيمان بل عينه ولا تصح محبة الله ورسوله حقيقة ولا حب لغير الله ولا كراهة الرجوع في الكفر إلا لمن قوى الإيمان في نفسه وانشرح صدره وخالط دمه ولحمه، وهذا هو الذي وجد حلاوته" (٢)

ولما كان لصدر الحديث أهمية بالغة في استنارة المتلقي وتبنيه إلى الإصغاء إلى ما يخاطب به استهل ﷺ هذا البيان الشريف بأسلوب تشويقي رائع يجذب انتباه المخاطب ويخلع على الخبر أهمية بالغة عرفه بعد ذلك علماء البلاغة

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان حديث رقم ١٦ وأخرجه مسلم - كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ج-١ ص ٢٨٨ .

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين العيني ج-١ ص ٢٢مراجعة / صدقي جميل العطار طباعة دار الفكر أولى ١٩٩٨ م .

بأسلوب الإيضاح بعد الإبهام^(١) وهو صورة من صور الإطناب فقال ﷺ :
" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان " فهذه الجملة جملة مبهمة جعلت
المستمع يتقرب بل يتعجل الإيضاح والتفصيل وبذلك تكون قد أثارت فيه
النشاط والانتباه اللذين يتطلبهما أهمية الخبر ، فإذا ما فصل الحديث ووضح
المبهم صادف نفساً مهياً مستعدة .

وقد قال البلاغيون في نكتة الإيضاح بعد الإبهام : " ليرى المعنى في
صورتين مختلفتين أو ليتمكن في النفس فضل تمكن ، فإن المعنى إذا ألقى على
سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل
والإيضاح ، فتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيه فضل
تمكن . " (٢)

ومما يلحظ أيضاً في هذه الجملة الإيغال في درجة هذا الإبهام وذلك عن
طريق الإيجاز بال حذف في قوله ثلاث حيث حذف المضاف إليه و عوض عنه
التنوين ، إذ تقدير الكلام " ثلاث خصال " ولولا هذا التعويض بالتنوين وتقدير
المضاف إليه المحذوف لما صح الابتداء بلفظ ثلاث لأنها نكرة ، فمجيء التنوين
عوضاً عن المضاف إليه المحذوف هو الذي سوغ الابتداء بالنكرة .

ولعل السر في إثبات التعبير بلفظ ثلاث مجردة دون إظهار المضاف إليه
المحذوف هو المبالغة في الإبهام تشويقاً للسامع لمعرفة أصل هذه الثلاث وتفصيل
محتوياتها .

(١) الإيضاح بعد الإبهام هو أن يأتي الكلام مبهماً مغلفاً بشيء من اللبس ويحس صاحبه إزاء ذلك بأن
الأمر يحتاج إلى كلام يزيل هذا اللبس ويوضح ذلك الإبهام ، ينظر الإطناب أنواعه وقيمه -
د/ شاكر القطان ص ٢٦ ط مكتبة التراث بالمدينة المنورة ط أولى ١٩٨٦ م .

(٢) الإيضاح للخطيب ص ٢٢٨ تحقيق د / عبد القادر حسين ط مكتبة الآداب

ثم لك بعد ذلك أن تدقق في معنى هذه الجملة النبوية الشريفة لتصل من خلالها إلى أهمية محبة الله ورسوله في الشعور بلذة الإيمان التي لا تعد لها لذة " من كن فيه وجد حلاوة الإيمان " .

أي أن هذه الخصال الثلاث التي سيرد تفصيلها بعد هذا الإجمال هي التي تجعلك تتمتع بطاعتك لله تعالى ، فالتعبير بقوله " وجد حلاوة الإيمان " يوحى بأن أصل الإيمان موجود في نفس كل موحد ما دام قد نطق بالشهادتين، لكن حلاوة الإيمان تائهة في مسارب نفسه لا يهتدي إليها ولا يتذوق طعمها إلا بهذه الثلاث ، فمتى انطوت نفسه على هذه الثلاث وجد في التو واللحظة حلاوة الإيمان .

يزيد في جمال الأسلوب النبوي هذا التصوير البياني الرائع لأثر الإيمان في القلوب ، عن طريق الاستعارة المكنية في قوله " حلاوة الإيمان " وذلك لأن الحلاوة إنما تكون في الأطعمة وليس مطعوماً ، وبذلك يكون قد شبه الإيمان بالعسل ثم طوى المشبه به وجعل المشبه فرداً من أفراد المشبه به ثم رمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحلاوة ، والجهة الجامعة بينهما هو الالتذاذ وميل القلب إليه ، وإثبات لازم المشبه به " الحلاوة " للمشبه " الإيمان " استعارة تخيلية .

وقد عبر عن هذه الحالة الإيمانية والمتعة الروحية بالحلاوة لأنها أظهر اللذات المحسوسة وإن كان لا نسبة بين هذه اللذة واللذة الحسية والمقصود بحلاوة الإيمان الاستلذاذ بالطاعات وتحمل المشاق في الدين .

وبعد هذا الإبهام والإجمال الذي جعل المخاطبين في أتم درجات التهيؤ والاستعداد لتلقي تفصيل هذا الخبر شرع في إيضاحه فقال " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " .

قال ابن بطّال: " محبة العبد لخالقه التزام طاعته والانتهاه عما نهى عنه، ومحبة الرسول كذلك وهي التزام شريعته ^(١) .

وتلحظ في قوله " أن يكون الله ورسوله .. " استخدام المصدر المؤول من أن والفعل المضارع وإيثار ذلك على استخدام المصدر الصريح ، ولعل السر في ذلك هو دلالة الفعل المضارع على التجدد الذي يوحي بأن هذه الحالة مطلوبة في كل وقت ، فالاستقامة على طاعته والتزام أوامره والاستئان بسنة المصطفى ﷺ في كل شيء مقدم على غيره مما يكون للنفس فيه هوى وأنه يحتاج إلى تجديد ومتابعة .

وفي قوله " أحب إليه مما سواهما " التعبير بصفة أفعل التفضيل إشارة إلى أن وجود المحبة في القلوب أمر فطري مجبول عليه الإنسان ، إذ ميله لما يوافقه أو محبته لنفسه أو أولاده أو ما يعود عليه بالنفع أمر طبيعي ولا غبار عليه لكن المطلوب هو تقديم محبة الله ورسوله على كل ما سواهما بمعنى أنه إذا تعارض أمر يحبه الإنسان مع مراد الله أو مراد رسوله قدم مراد الله ومراد رسوله على أمر نفسه.

ولذا قال ابن حجر " من علامة الحب المذكور أن يعرض على المرء أن لو خُيّر بين غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ - أن لو كانت ممكنة فإن كان فقدها أن لو كانت ممكنة أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة ومن لا فلا ^(٢) .

ثم انظر إلى إعلاء درجة محبة الله ورسوله والارتفاع بشأنها عن طريق جعل المفضل عليه عاماً يشمل العقلاء وغيرهم وذلك في قوله "مما سواهما "

(١) يراجع عمدة القاري جـ ١ ص ٢٢٩

(٢) عمدة القاري جـ ١ ص ٢٢٨

ولم يقل ممن سواهما، فليس محبة الله ورسوله مقدمة على النفس والأهل والولد فقط بل مقدمة على كل ما خلا الله ورسوله، من حب الدنيا وحب المال وحب الجاه إلى غير ذلك من مغريات الحياة .

كما أن محبة الله لا تنفصل عن محبة رسوله ولا تنفع إحداهما دون الأخرى فالمطلوب هنا مجموع المحبتين لا كل واحدة منهما على حدة تلحظ ذلك من تشبيه الضمير في قوله " مما سواهما "

قال القاضي عياض : " وأما تشبيه الضمير ههنا فللإجماء، على أن المعبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة، فإنها وحدها ضائعة لاغية " (١) .

ثم بعد أن فرغ من بيان وجوب محبة الله ومحبة رسوله على المؤمنين شرع في بيان نوع آخر من المحبة مرتبط بالحببة الأولى وهي محبة الله ورسوله فقال : " وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله " ليبين أن المحبة والمودة التي تكون بين الخلق مرتبطة بمحبة الله إذ إن المؤمن يصرف كل أعماله لله وحده حتى أحاسيسه ومشاعره لا يدع للشيطان ولا لأي غرض من أغراض الدنيا فيها نصيب . فمحبة الخلق عنده نابعة من محبته لله ورسوله فهو يحب إخوانه المؤمنين لأجل طاعتهم لله ومحبتهم إياه .

ولذلك تراه أيضاً يستخدم في ذلك المصدر المؤول " وأن يحب " من أن والفعل " دون المصدر الصريح لما في الفعل من دلالة على التجدد والحدوث لهذه المحبة في قلبه ما دام هذا المرء مرتبطاً بالله . تنقطع هذه المحبة عند انقطاع صلة هذا المرء بالله فهو لا يحبه لذاته وإنما يحبه لله ولذا تراه يؤكد أصل هذه

(١) فتح الباري جـ ١ ص ١٣٣ .

الحبة بالجملة الحالية " لا يجبه إلا لله " بعود الضمير فيها على المرء الخجوب في الجملة الأولى لينفي عن هذه الحبة أي شيء من الحظوظ البشرية، فالحبة في قلب هذا الذي وجد حلاوة الإيمان منذ نشأتها في قلبه وحال دوام هذا المرء على طاعة الله خالصة لله منقطعة عن أي غرض دنيوي .

ساعد على تأكيد هذا المعنى وترسيخه إيرادُه في ثوب القصر الذي نفى عن هذه الحبة أي تعلق آخر وأثبتها خالصة لله وحده، فهو قصر إضافي صفة على موصوف، وكان من الممكن أن يقال وأن يجب المرء لله دون قصر، غير أن التأكيد بجملة القصر أفاد قطع شائبة العلائق عن هذه الحبة .

إذن فالقصر هنا قد أفاد التوكيد على أن إخلاص الحبة لله شرط أكيد في تحصيل الإيمان الذي لا يجد حلاوته إلا من صفت روحه لله وخلت من كل علائق الدنيا .

ولما كانت الحبة أصلاً من أصول الدين الذي يعمق جذور الإيمان في تربة القلوب عطف عليه قوله : " وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار " وهذه جملة مرتبطة بأول الحديث " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " .

لأن محبة الله ورسوله نابعة من الإيمان بهما والطاعة لهما، وتأكيد هذه الحبة هو كراهة الخروج منها إلى النقيض . فأول الحديث وآخره يدور حول قطب واحد هو إخلاص الحبة والطاعة له سبحانه .

ولذلك لو قيل: ما الحكمة في كون حلاوة الإيمان في هذه الأشياء

الثلاثة ؟

أجيب بأن هذه الأمور الثلاثة هي عنوان كمال الإيمان المحصل لتلك اللذة، لأنه لا يتم إيمان امرئ حتى يتمكن عنده أن المنعم بالذات هو الله ولا مانع ولا مانع سواه ... وأن الرسول هو العطوف الساعي في إصلاح شأنه، وذلك يقتضي أن يتوجه بكليته نحوه وألا يجب ما يجبه إلا لكونه وسطاً بينه وبينه وأن يتيقن أن جملة ما أوعده ووعد حق، تيقناً يخيل إليه الموعود كالواقع فيعرف أن العود إلى الكفر يؤدي إلى الإلقاء في النار حقيقة فيكره أن يعود إليه ^(١)

يلحظ أيضاً - سلمك الله - في هذه الجملة تكرير استعمال المصدر المؤول " أن يكره " كما استخدمه في الجملتين السابقتين، إشارة إلى وجوب تجديد الشكر على نعمة الإخراج من الكفر واستقباح الحالة التي عليها الكفار ، بل فوق ذلك ألا يفارق قلبه استهجان صورة العودة إلى ظلمة الكفر التي تحيط بالقلوب فتحجبها عن نور الإيمان بالله عز وجل .

يساعد على تصوير فظاعة ظلمة الكفر التعبير بحرف الجر " في " في قوله " يعود في الكفر " بدلاً من إلى الكفر . فهي تصوير الكفر ظرفاً يحتوي الإنسان بداخله فيحجب عنه كل شيء، وهذا يجعلك تنظر إلى بلاغة الاستعارة في الحرف على طريقة الاستعارة التبعية كما هو عند الجمهور والخطيب ^(٢) أو المكنية على طريقة ابن يعقوب المغربي ^(٣) .

(١) يراجع عمدة القاري جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢) يراجع الإيضاح للخطيب ص ٢٢٩ .

(٣) يراجع مواهب الفتح وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص جـ ٤ ص ١٢٢ ، ويراجع / بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي جـ ٣ ص ١٣٥ ويراجع كتاب لحات من هدي النبوة ص ٨ للدكتور محمود شبحون ط دار الطباعة المحمدية ١٩٧٤ م .

فيقال في إجرائها على التبعية : شبه تلبس الكفر بالشخصية بتلبس الظرف بالمظروف بجامع التمكن في كل ، ثم استعير تلبس الظرف بالمظروف لتلبس الكفر بالشخصية ثم سرى التشبيه من الكلين إلى الجزئين فاستعيرت " في " من جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة هي دخول " في " على الكفر .

ويقال في إجرائها على طريقة ابن يعقوب شبه الكفر المتلبس بالشخصية بالظرف الحقيقي، ثم استعير الظرف الحقيقي للكفر، ثم حذف ودل عليه بشيء من لوازمه وهو " في " على سبيل الاستعارة المكنية ، ودخول في على الكفر استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية.

ثم انظر إلى تصوير كراهة قلب المؤمن العودة إلى الكفر واستحالة التفكير فيها . وذلك عن طريق التشبيه التمثيلي في قوله " كما يكره أن يقذف في النار " فمن منا يمكن أن يتصور أن يؤخذ به قسراً وقهراً ليقذف في النار؟! هذه الحالة لا يمكن أن يتخيلها أي إنسان ، فكذلك قلب المؤمن يرى عودته أو مجرد تفكيره في الرجوع إلى الكفر بمثابة القذف في النار .

فهذه صورة تشبيهية رائعة جسدت وصورّت اشتمزاز واستقباح قلب المؤمن الذي وجد حلاوة الإيمان من العودة إلى الكفر بعد أن تفضل الله عليه وأنقذه منه .

ويزيد في بيان فضل نعمة الله على عبده المؤمن ما جاء في رواية مسلم في قوله : "أ ن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه " (١) فإنقاذ الله لعبده وهدايته إلى الإيمان من أفضل النعم . ولذلك تراه يستحضر هذه النعمة ويعرف حقها .

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب خصال من اتصف بمن وجد حلاوة الإيمان .

والإنقاذ من النار - كما يقول ابن حجر- إما إنقاذ من البداية بأن يولد على الإسلام ويستمر وإما بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة حين أسلموا^(١).

ومما يلحظ أيضاً في الحديث من لمحات بلاغية ما يأتي :

* بلاغة الفصل والوصل المتمثلة في الفصل بين قوله " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان " وبين ما بعدها ، والسّر في ذلك الفصل لكمال الاتصال حيث نزلت الجملة الثانية وما عطف عليها من الأولى منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح والتبيين والتفصيل لما أهتم في الجملة الأولى، أيضاً الوصل بين الجمل " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " وما بعدها والتي تليها ، وذلك لوجود الجهة الجامعة بينهم ، وقصد التشريك في الحكم الإعرابي مع اشتراكهم جميعاً في الخبرية لفظاً ومعنى .

* كذلك من الألوان البديعية الرائعة: الطباق بين قول يجب ويكره الذي أضفى على الصورة جرساً في اللفظ وتناسباً في المعنى ، لأنهما يدوران حول قطب واحد وهو إخلاص المحبة والطاعة لله وحده، وكذلك الطباق بين " الإيمان " وبين الكفر .

* حذف المسند إليه في قوله " يقذف " بالبناء للمجهول لعدم تعلق الغرض بذكره لأن توقع الخطر مع الجهل بمصدره أشد وقعاً في النفوس كما أنه يجعل العقل يذهب في تصور القاذف كل مذهب.

(١) يراجع فتح الباري ج١ ص ١٣٧ .

* آل في " الإيمان " و " الكفر " في قوله وجد حلاوة الإيمان وقوله " أن يعود في الكفر " للعهد الذهني .

* بناء الفعل " يعود " للمبني للمعلوم إشارة إلى أن العود إلى الكفر، إنما يكون بمشيئته الشخصية وإرادته، وبنائوه المجهول في قوله " يقذف " إشارة إلى أن هذا الأمر داخل تحت الإكراه والإرغام .

* الاحتراس الذي في قوله " لا يجبه إلا لله " الذي يخلص ثمرة المحبة من شائبة الأغيار .

من خلال هذا البيان النبوي الشريف نرى أن المحبة الخالصة المستلزمة لموافقة الحبوب على ما يحب ويرضى عنصر أساسي في تكوين الإيمان في القلوب بحيث يجد الحب حلاوته ويشعر بالقرب فيه ، فمن عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، ومن أطاع الله أكرمه، ومن أكرمه أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوبى له، ثم طوبى له.

أيضاً: مما جاء في بيان وجوب محبته ﷺ على المؤمنين ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده " وفي رواية مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " (١) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب حب الرسول ﷺ رقم ١٤ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين رقم ٧٠ وأخرجه النسائي جـ ٨ ص ١١٤ ، ١١٥ .

ورد هذا الحديث الشريف لبيان وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين كما بوب له الإمام النووي .

وقال عنه الإمام العيني : " قال أبو الزناد هذا من جوامع الكلم الذي أوتي به عليه الصلاة والسلام إذ أقسام المحبة ثلاثة : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة الناس بعضهم بعضاً، فجمع عليه السلام ذلك كله " . (١)

والمحبة الواجبة في الحديث هنا هي محبة الاتباع لا محبة الطبع، ومن هذه المحبة نصرة سنته والذب عن شريعته وتمنى حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه، فلا تتم حقيقة الإيمان إلا بإعلاء قدر النبي ﷺ ومثرتة على كل والد وولد والناس أجمعين، ومن لم يعتقد ذلك فليس بمؤمن، والسبب في ذلك أننا استتقنا به من النار وهدينا به من الضلال (٢) .

والذي يلفت انتباهنا هنا في هذا الحديث الشريف هو استهلاله ﷺ لكلامه بالقسم " فو الذي نفسي بيده " في حين أن المخاطبين أمامه غير منكرين ولا شاكين في كلامه " فالصحابه رضوان الله عليهم يجزمون بصدق الرسول ﷺ في كل قول يقوله فهو لا يقسم - وحاشاه - ليحتذب القلوب لتصديقه وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين (٣)

إذن ما الداعي الذي جعل النبي ﷺ يسوق الكلام بأشد أنواع التأكيد وهو القسم؟! لا شك أن الأمر الذي استدعى ذلك هو أمر مهم غاية

(١) عمدة القاري ج١ ص ٢٢٢ .

(٢) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص ٢٩١ .

(٣) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ١٠٠ .

الأهمية ، فأراد النبي ﷺ أن يتلقاه المخاطبون تلقي الاهتمام لما ينطوي عليه من مدلول خطير يهم حياة الفرد والمجتمع .

ولعلك تدرك خطورة ما يقسم عليه النبي ﷺ من صيغة القسم نفسها فهو يقول " والذي نفسي بيده " أي أنا أحلف بالذي يملك نفسي وهو قادر عليّ ، وذلك كله ليدرك الصحابة أهمية الأمر الذي سيأتي بعده، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الدرجة من الإدراك ، فقد كانوا يدركون الفرق بين هذه الصيغ في درجة القوة

إذن .. النبي ﷺ يقسم وبهذه الصيغة القوية على أمر مهم يأتي بعد هذا القسم ليهيئ النفوس ويشوقها إلى تلقي الخبر .

ثم يأتي الخبر المهم ليجد النفوس مستعدة " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده " والمعنى لا يستكمل أحدكم حقيقة الإيمان حتى يقدم محبة النبي ﷺ على كل شيء عزيز على النفس؛ وذلك إمعاناً في بيان عظيم قدر النبي ﷺ وأن محبته ليست من باب التطوع ولا التفضل، بل هي جزء أساسي في إيمان العبد، بل هي علامة على وجود الإيمان لا يستحق بدونها أن يوصف المرء بأنه مؤمن .

وقد يتبادر هنا سؤال : لماذا ذكر الوالد والولد ولم يذكر نفس الرجل ؟
ويجاب على ذلك بأنه خصص الوالد والولد لكونهما أعز خلق الله تعالى على الرجل غالباً وربما يكونان أعز من نفس الرجل فذكرهما على سبيل المثال .

كما أنه مما يدل على أن النفس تدخل في الحديث ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع هذا الحديث قال يا رسول الله أنت أحب إلي من

كل شيء إلا من نفسي قال ومن نفسك يا عمر فقال ومن نفسي فقال الآن يا عمر" (١) .

وهنا يطرأ سؤالٌ آخر : إن المحبة أمرٌ طبيعيٌّ غَرَزِي لا يدخل تحت الاختيار فكيف يكون مكلفاً بما لا يطاق عادة ؟

ويجاب عليه : بأنه لم يُرد حب الطبع بل حب الاختيار المستند إلى الإيمان ، ومعناه لا يؤمن أحدكم حتى يؤثر رضاي على هواه وهوى الوالدين ، وإن كان فيه هلاكه وهلاكهما .

والتأمل في بلاغته ﷺ في هذا الخبر يجد أن النفي قد سلط على الفعل المضارع الذي يشمل الزمن الحاضر والمستقبل، ليقف حائلاً بين العبد والإيمان حتى يحقق شرط محبة النبي ﷺ، بل ويفضلها على حبه لنفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

وحتى هنا في قوله " حتى أكون أحب ... " للغاية تحمل معنى إلا الاستثنائية التي تتركب مع النفي المتقدم في أول الخبر لتكون جملة من القصر بطريق النفي والاستثناء لتقصر تحقق الإيمان على تحقيق شرط محبة النبي ﷺ أكثر من كل شيء (٢) .

(١) ينظر عمدة القاري جـ ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

(٢) قال صاحب شرح التسهيل: وزاد الشيخ رحمه الله . كونه - أي حتى - بمعنى إلا واستشهد بقول الشاعر :

ليس العطاء من الفضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليل.

بناءً على أنك لو جعلت " إلا أن " مكان حتى فقلت ليس العطاء من الفضول سماحة إلا أن تجود ... كان المعنى صحيحاً . تنظر المسألة في شرح التسهيل: جـ ٤ ص ٢٤ تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد والدكتور محمد بدوي المختون مطبعة هجر للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٩٩٠ م ١٤٢٠ هـ ، والبيت للمقنع الكندي: ينظر شواهد العيني ط دار إحياء الكتب العربية جـ ٣ ص ٢٩٧

كما أن لفظ " أحب " أفعل تفضيل يدل على أن حبَّ الرسول ﷺ ينبغي أن يكون فوق كل حب .

كما أننا إذا قرأنا رواية مسلم " أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " نجد ملمحاً بديعاً رائعاً وهو ترتيب المعنى ترتيباً تصاعدياً بدأ بذكر القريب ثم انتهى بالبعيد ، وهذا الملمح يسميه علماء البلاغة ذكر العام بعد الخاص، وهو لونٌ من ألوان الإطناب العالية^(١)

وتتجسد قيمته البلاغية في إفادة العموم والشمول، مع العناية بالخاص لذكره منفرداً مرةً وذكره مندرجاً مرةً أخرى تحت العام^(٢) وهذه القيمة قد تحققت في الحديث الشريف، حيث ذكر الخاص وهو الوالد والولد - لأنهما أعز الناس - ثم ورد ذكرهما مرةً أخرى مندرجاً في ذكر العام وهو قوله " والناس أجمعين " .

ولهذه الصورة الرائعة أمثلة من القرآن الكريم كما هي واضحة في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ } سورة نوح (٢٨) " فقد دخل الخاص وهو الدعاء لنفسه ولوالديه ضمن الدعاء العام في قوله " وللمؤمنين والمؤمنات " وذلك بغرض الاهتمام بالخاص والعناية به.

(١) ذكر العام بعد الخاص عكس الصورة التي ذكروها في صورة الإطناب فهي تبدأ من الأقل إلى الأكثر وترتقي من الجزئيات إلى الكلّيات ولم يوردها الخطيب وشراح التلخيص، مع أن لها قيمة بلاغية عالية يتطلبها المقام وقد ذكر السيوطي أن بعضهم أنكروا هذه الصورة فأخطأ . ينظر الإتقان للسيوطي جـ ٢ / ص ٧٢ وينظر عقود الجمان للسيوطي أيضاً جـ ٢ ص ٢٤١ مطبعة الحلبي الطبعة الثانية ١٩٥٥ م

(٢) ينظر المعجم المفصل في علوم البلاغة د/ إنعام فوال عكاوي ص ١٧٢ ط دار الكتب العلمية ط أولى . ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

كما تلحظ أيضاً في اختلاف الروائين أن رواية البخاري قدمت الوالد عن الولد في قوله " حتى أكون أحب إليه من والده وولده " ورواية مسلم والنسائي قدمت الولد في قوله " حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " .

وقد وضع الإمام العيني علة هذا الاختلاف فقال " فإن قيل ما وجه تقديم الوالد على الولد ، أجيب بأن ذلك للأكثرية، لأن كل واحد له والد من غير العكس، ثم قال: والأولى أن يقال إنما قدم هنا الوالد نظراً إلى جانب التعظيم وقدم الولد على الوالد في رواية النسائي نظراً إلى جانب الشفقة والترحم" (١) .

أيضاً مما جاء في بيان فضل محبة الله ورسوله ﷺ ووجوبها على المؤمنين ما أخرجه البخاري - رحمه الله - عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله متى الساعة؟ قال وما أعددت لها؟ قال ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال : أنت مع من أحببت .

قال أنس فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ أنت مع من أحببت " قال أنس فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بجبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم " (٢)

وفي رواية أخرى للبخاري " عن أنس بن مالك أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله ! قال ما أعددت لها؟ قال ما أعددت لها من كثير

(١) عمدة القاري ج١ ص ٢٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب حديث رقم ٣٦٨٨ ، وأخرجه مسلم في البر والصلة باب المرء مع من أحب حديث رقم ٢٦٣٩ (٢) أخرجه البخاري باب علامة حب الله رقم ٦١٧١ .

صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت " .

هذا الحديث الشريف يفتح الباب واسعاً أمام المحبين، حيث يشملهم الله بعنايته فيجمع كل حبيب مع حبيبه وإن قصرت الأعمال ، فهذا هو الأعرابي يأتي النبي ﷺ يسأله عن قيام الساعة، وكله شوق إلى أن يجتمع مع من يحبهم ، فهو يحب الله ورسوله ويرى أن أعماله قليلة تقصر به عن مقام هذه الحبة ، إلا أنه لما كان صادقاً في محبته بشره ﷺ بأن الحبة كفيفة بأن تجمع المحبين حتى وإن قصرت بهم الأعمال فقال له "أنت مع من أحببت" فبفضل محبته لله ورسوله استحق أن يكون مع أحبائه في الجنة.

يقول النووي عن هذا الحديث " فيه فضل حب الله ورسوله ﷺ والصالحين وأهل الخير الأحياء والأموات " (١) ، كما أن في هذا الحديث بشرى ضمنية لهذا الرجل بأنه من أهل الجنة، إذ إن مكان اجتماع المحبين في الآخرة هو جنة الله عز وجل.

والحديث هنا قائم على الأسلوب القصصي، فالحوار والسؤال والجواب هو العنصر الرئيسي في إظهار البراعة والبلاغة النبوية في هذا الحديث.

ويبدأ الحوار بتوجيه هذا الأعرابي سؤالاً إلى النبي ﷺ يبدو لأول وهلة غريباً ؛ إذ لم يسأل عن أمر يخصه في أمور دينه، بل يسأل عن قيام الساعة فقال : متى الساعة ؟ والسؤال هنا يحمل على التعجب والاستغراب، إذ إن السؤال عن الساعة وموعد قيامها لم يسأل عنه إلا المشركون إنكاراً وتكذيباً

(١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٨ ص ٤٣٨ .

بقيامها، حيث حكى القرآن عنهم ذلك فقال " { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ }
أَيَّانَ مُرْسَاهَا { سورة الأعراف (١٨٧) فما الذي حمل هذا الرجل على هذا
السؤال ؟

ولما كان السؤال غريباً تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم بغير الجواب
الذي يتوقعه فأجاب سؤالاً بسؤال أهم فقال : " وما أعددت لها ؟ " وهذا ما
يسميه علماء البلاغة بأسلوب الحكيم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل
كلامه على خلاف مرآه تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد أو السائل بغير ما يتطلب
تنبيهاً على أنه الأولى بحاله والمهم له " (١)

يقول الطيبي " سلك مع السائل طريقة أسلوب الحكيم ، لأنه سأل عن
وقت الساعة وأيان إرسائها فقبل له " فيم أنت من ذكراها ؟ وإنما يهملك أن
تتمم بأهبتها ، وتعني بما ينفعك عند إرسائها من العقائد الحقة والأعمال
الصالحة " (٢)

لقد جاء الأسلوب الذي سلكه معه ﷺ في مكانه المناسب، حيث أوقف
الرجل على حقيقة القضية ؛ فليست القضية ميعاد قيام الساعة لأنه أمر محسوم
فالله عز وجل أخبر عن مجيئه لا محالة فقال " { أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ }
سورة النحل (١) ، فقد عبر الله عن مجيئه في المستقبل بصيغة الماضي إمعاناً في
تحقق وقوعه ، فالقضية إذن تكمن وراء هذا السؤال وما أعددت لها ؟ ما الذي
أعدده أيها السائل لهذا اليوم ؟

(١) الإيضاح ص ١٠٧

(٢) شرح الطيبي ج٩ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

والرجل كان صادقاً مع نفسه كل الصدق . فلم يدع أنه على أتم الاستعداد لهذا اليوم فأجاب بما هو حاله في العبادة فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة " غير أنه جاء بشفيح يجبر معه كل تقصير في الطاعات فقال: " ولكي أحب الله ورسوله " .

يا لها من كرامه أعطاها الله لهذا الرجل ، حيث منحه قلباً أحب الله ورسوله حباً صادقاً استحق على أثره هذه البشرى العظيمة من النبي ﷺ حيث قال له " أنت مع من أحببت " يا لها من كلمات على الرغم من وجازتها وقلة عددها إلا أنها لتحمل كما كبيراً من البشارات .

أولها : أنها تحتوي على بشرى ضمنية لهذا الرجل بأنه من أهل الجنة، لأن المعية في قوله " مع من أحببت " تقتضي مكاناً تكون فيه هذه الصحبة، والمكان الذي تكون فيه صحبة النبي ﷺ في الآخرة هو جنة عرضها السماوات والأرض ، حتى وإن اقتضت أعمالهم تفاوتاً في الدرجات إلا أن المكان الذي سيجمعهم هو الجنة ، يتزل الأعلون إلى من هم أسفل منهم فيجتمعون في رياض الجنة، ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) سورة النساء .

قال بن كثير في تفسير هذه الآية : " أنه روي في الأثر أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقته فكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً فأنزل الله هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ بأن الأعلين ينحدرون إلى من

هو أسفل منهم فيجتمعون في رياض الجنة فيذكرون ما أنعم الله عليهم ... " (١)
إذن تحققت من معية " مع من أحببت " بشراه أنه من أهل الجنة.

ثانيها : تخصيصه بضمير الخطاب " أنت " الموضوع لخطاب واحد بعينه يؤكد على أنه صاحب البشرى بأنه من أهل الجنة، فلم يقل له مثلاً: حبك لله ورسوله سيدخلك الجنة ، مما يحتمل الاستقبال، بل خاطبه بما يفيد القطع واللزوم " أنت أيها السائل مع من أحببت " .

ثالثها : حذف المفعول في قوله " أحببت " يوحي بالعموم والشمول وذلك ليفتح أمامه باباً واسعاً من الاجتماع مع كل من أحبه من أهل الجنة .

رابعها : أن هذه البشرى في هذا الحديث وإن كانت خاصة بهذا الرجل إلا أنها تعم وتشمل كل من كانت محبته لله ورسوله، فالمؤمن

الذي يحب الله ورسوله ويجب المؤمنين يجمعه الله عز وجل بفضل هذه الحبة بهم في الجنة ومصداق ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ قال المرء مع من أحب " (٢) .

قال العيني: " مع من أحب " أي في الجنة يعني هو ملحق بهم داخل في زمرةم، ألحقه ﷺ بحسن النية من غير زيادة عمل بأصحاب الأعمال الصالحة.

وقال بن بطال فيه أن من أحب عبداً في الله فإن الله يجمع بينهما في جنته وإن قصر في عمله ، وذلك لأنه لما أحب الصالحين لأجل طاعتهم أثابه الله

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٥٢٢ ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب علامات الحب في الله وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة

ثواب تلك الطاعة، إذ النية هي الأصل والعمل تابع لها والله يؤتي فضله من يشاء
والله ذو الفضل العظيم" (١).

فانظر إلى العموم في قوله " المرء مع من أحب " الذي جعل الحب في الله
قاعدة يندرج تحتها كل من صفت نفسه ورقَّت مشاعره فأخلص في هذه العلاقة
وجعلها لله ، فلم يقل مثلاً " هو مع من أحب " حتى يعود الضمير إلى الرجل
المذكور في أول الحديث " كيف تقول في رجل " لكنه قال: " المرء مع من
أحب " ليشمل جنس الخبيرين أجمعين .

المبحث الثاني

بيان فضل محبة آل البيت ووجوبها على المؤمنين

روى الترمذي .. عن حبيب ابن أبي ثابت عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله ﷺ : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما .^(١)

هذا الحديث الشريف يثبت وجود المحبة لكتاب الله ولآل بيت رسول الله ﷺ ثم يؤكد أن الفلاح كل الفلاح في التمسك بهما، وأن كتاب الله هو سبب الهداية وطريق النجاة في الآخرة ، ثم يختتم الحديث بالوصية الجامعة " فانظروا كيف تخلفوني فيهما " .

والناظر إلى هذا البيان النبوي الشريف يجده مستهلاً بالأسلوب الخبري المؤكد مما يوحى بأهمية الخبر الذي سيبلغه النبي ﷺ والذي ينظر إلى التأكيد يجده حاصلًا في صورتين .

التأكيد بأن .. ثم التأكيد باسمية الجملة، مما يدل على عظم الأمر واحتياجه إلى التيقظ والانتباه .

وليس معنى هذا التوكيد أن الصحابة رضوان الله عليهم منكرون أو في منزلة من ينكر لكلامه ﷺ ، فهناك ضروب من التوكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب ، وإنما ينظر فيها إلى حال المتكلم ومدى انفعاله بهذه الحقائق وحرصه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ج٥ ص ٦٦٣ حديث رقم ٣٧٨٨ وأخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عليّ ج٥ ص ١٩٠ رقم ٢٤٠٨ .

على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقرررة أكيدة في نفسه
فصورة التأكيد هنا توحى بانفعال النبي ﷺ واهتمامه بأمر كتاب الله
وأمر أهل بيته من بعده فهو الحرص على أن يتمسك المؤمنون من بعده بهما
ويخلفوه فيهما ، ولذلك صاغ كلامه هذه الصياغة المؤكدة لينقل مشاعره بهذه
الدرجة العالية إلى المخاطب فيأخذ الأمر مأخذ الجد والاهتمام .

وزيادة في شحذ اهتمام المخاطب وتشويقه إلى الخبر يلقي النبي ﷺ
كلامه في صورة مبهمة تستدعي السؤال والاستفسار فيقول: " إني تارك فيكم
ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدي أبداً " .

حتى إذا سمع المخاطب هذه الجملة دار في نفسه سؤال عن ماهية هذا
الشيء ترقب متابعة الكلام واسترساله في يقظة وانتباه لعله يسمع ما يوضح له
هذا الإبهام ويفصل له هذا الإجمال وخاصة بعد أن حكم ﷺ أن من تمسك به
لن يضل في دنياه أبداً، وهذا تشويق يسميه علماء البلاغة " بالإيضاح بعد
الإبهام " - وهو صورة رائعة من صور الإطناب - ثم زيادة في التشويق والإثارة
للمخاطب يأتي ﷺ بجملة أخرى معترضة ^(١) بين هذا الإبهام السابق في الجملة
الأولى وبين التوضيح والتفصيل الذي يترقبه المخاطب وهذه الجملة المعترضة هي
- أعظم من الآخر - وذلك ليعلم المخاطب أن الكلام الذي سيفصله ﷺ
سيتعلق بأمرين ، وليس بأمر واحد، وأن أحد هذين الأمرين هو الأولى بالاهتمام
والتوقير .

(١) الاعتراض " هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من
الإعراب لنكتة " . الإيضاح ص ٢٣٩ .

إذن اتضح في ذهن المخاطب من هذه الجملة شيئان : أولهما مجيء التفصيل بعد ذلك سيكون لأمرين ، ثانيهما أن أحد الأمرين أعظم من الآخر، وهذا بطبعه يثير فضول المخاطب إلى معرفة التوضيح في لهفةٍ وترقبٍ وهذا من بديع بلاغته ﷺ في إثارة التشويق عند المتلقي حتى إذا ما فصلَّ الجمل ووضح المهم تمكن في نفس السامع أيما تمكن .

ثم يشرع بعد ذلك في توضيح ما أجهم وتفصيل ما أجمل فيقول : " كتاب الله " وهو إما بالنصب على أنه مفعول به لاسم الفاعل تارك والتقدير إني تارك فيكم كتاب الله ، وإما على الرفع فيكون خبراً مبتدأً محذوف تقديره أولهما أو أحدهما ، وذلك لأن الجملة السابقة " أحدهما أعظم من الآخر " ففهم فيها أن هناك أمرين ، فيكون التقدير أولهما كتاب الله أو أحدهما كتاب الله ، وعلى هذا التقدير يكون في الجملة إيجاز بالحذف، حيث حذف المسند إليه، والعلة فيه صرف المخاطب إلى هذا الشيء المهم مباشرة، كما أن هذا المحذوف معلوم للسامع ومفهوم ، وذلك من خلال الجملة السابقة " أحدهما أعظم من الآخر " .

ثم تأتي الجملة التالية " جبل ممدود من السماء إلى الأرض " لتبين قيمة هذا الكتاب الجيد والذي هو بمثابة جبل ممدود من السماء إلى الأرض من تعلق به نجا ومن تركه هلك .

وهي جملة مبنية على الإيجاز أيضاً، فتقدير الكلام هو جبل ممدود محذوف المسند إليه، والعلة في هذا الحذف العلم بالمحذوف .

ومجيء هذا البيان لمترلة كتاب الله يعد لون بلاغيا رائعا يسميه علماء البلاغة التتميم^(١)، وهو صورة من صور الإطناب، حيث جاءت هذه الجملة لتفيد نكتة في الكلام وهي الإشارة إلى وظيفة هذا الكتاب وأنه السبب في النجاة لمن تمسك به .

كما أن في التعبير عن هداية القرآن بالحبل الممدود لوناً من ألوان المجاز وهو الاستعارة التصريحية ؛ حيث شبه هداية القرآن لمن تمسك به بالحبل الذي يمد من مكان عال ليمسك به من وقع في حفرة أو غير ذلك، ثم حذف المشبه به وصرح بالمشبه وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وقوله " ممدود " ترشيح لهذه الاستعارة، وقيمة هذه الاستعارة تظهر في بيان مكانة القرآن بين الناس بعد النبي ﷺ وأنه بالنسبة لهم طوق النجاة الذي أرسله الله إلى العباد ليأخذ بأيديهم من حفر الضلالة وظلمات الكفر إلى واحات الهدى ونور الإيمان .

ثم جاءت الوصاية بالأمر الثاني في قوله " وعترتي " ^(٢) والتي وضحتها بقوله : " أهل بيتي " فهو عطف بيان الغرض منه تخصيص هذه الوصية بأقرباء النبي ﷺ من أهل بيته . ولذا فصل بين الجملتين لما بينهما من كمال اتصال . وقوله " وعترتي " إما معطوف على الخبر في الجملة الأولى " كتاب الله " وإما خبر لمبتدأ محذوف تقديره وثانيهما: عترتي وتكون الجملة كلها معطوفة على الجملة الأولى .

(١) " هو أن يؤتى في كلام لا يومه خلاف المقصود وتفصيله يفيد نكتة " الإيضاح ص ٢٣٨ .

(٢) عترة الرجل نسله ورهطه الأذنون . مختار الصحاح للرازي مادة (عتر) ص ٤١٠ ط دار المعارف المطبعة الأميرية بالقاهرة .

وبذلك يكون النبي ﷺ قد جمع في وصيته بين كتاب الله وبين عترته إشارة إلى أنهما بمنزلة التوأمين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ ويوصي بحسن العشرة معهما وإيثار حقهما على أنفسهم .

ويعلل الإمام الطيبي سر هذه التوصية فيقول : " لعل السر في هذه التوصية واقتران العترة بالقرآن أن إيجاب محبتهم لائح من معنى قوله تعالى " { قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ } سورة الشورى (٢٣) " فإنه تعالى جعل شكر إنعامه وإحسانه بالقرآن منوطاً بمحبتهم على سبيل الحصر فكأنه ﷺ يوصي الأمة بقيام الشكر (١) .

ثم تراه ﷺ يؤكد حق آل بيته في هذه المحبة والقيام بحقه، عن طريق ربط هذا الحق بالقرآن الكريم ، فكما أن حق القرآن في التبجيل والتمسك به ثابت إلى يوم القيامة كذلك حق عترة النبي وآل بيته ثابت ومرتببط بحق القرآن، وهذا تلحظه من قوله " ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض "

فقد نفى الفرقة بينهما على التأييد بلن الداخلة على الفعل المضارع الدال على الاستقبال إشارة إلى بقاء هذا الحق في نسله إلى أن تقوم الساعة، وإشارة إلى أن نسله ﷺ على الحق وملازم للقرآن إلى نهاية هذه الدنيا .

كما أن التثنية في قوله " لن يتفرقا " تشير إلى أن القيام بحق أحدهما لا يغني عن القيام بحق الآخر، فمن قام بحق القرآن وفرط في حق عترة النبي ﷺ فهو مقصر وملوم .

(١) شرح الطيبي جـ ١١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

كما أن قوله " حتى يردا على الحوض " إشارة إلى أن مكافأة هذا الصنيع - وهو القيام بحق القرآن وحق عترة النبي - سيتولاه ﷺ بنفسه .
كما أن فيه تلويحاً بأن القرآن وعترة النبي سيخبران يوم القيامة عمن قام بحقهما وكذلك سيخبران عمن قصر في هذا الحق ولذلك حسن أن يأتي قوله : " فانظروا كيف تخلفوني فيهما " معطوفاً بالفاء، والمعنى فإذا تحقق عندك التيقن بأن القرآن وعترة النبي سيخبران عنك يوم القيامة فانظر ماذا أنت صانع في القيام بحقهما، فما تفعله معروض على في وقت أنت أحوج ما تكون فيه إلى الشفيع ، وذلك عند الورود على الحوض في أشد لحظات العطش بعد الورود من أرض الحشر .

ولذلك جاء فعل الأمر " فانظروا " الذي يحمل معنى التخيير معطوفاً على قوله: " ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض " ليعطي مساحة للتفكير، والوقوف للتأمل في كيفية استغلال هذه الفرصة التي منحها ﷺ لأمته - وهي القيام بحق القرآن وحق آل بيته - لتكون لهم شفيعاً في هذا الموقف الصعب .
والجملة كلها جاءت تحمل معنى الحث والترغيب منه ﷺ على اقتناص الفرصة، والمعنى تأملوا واستعملوا الروية في استخلافي إياكم ، هل تكونون خلف صدق أو خلف سوء ؟ (١) .

فالاستفهام هذا ليس على معناه الحقيقي وإنما هو بمعنى الحث والترغيب مع إتاحة الفرصة للاختيار حتى يكون المرء مسؤولاً عن اختياره .

(١) ينظر شرح الطيبي جـ ١١ ص ٣٠٥ .

وهذه دعوة رقيقة منه ﷺ تحمل في طياتها الرأفة والرحمة بهذه الأمة ، إذ يدها على طريق النجاة متمثلة في التمسك بالقرآن ثم القيام بحق آل بيته، في صرف احبة إليهم ولزوم طاعتهم .

وقد أكد ﷺ هذا الحق بطريقة أوضح وذلك من خلال الرواية الأخرى عند مسلم " قال أما بعد: ألا أيها الناس! فإني بشر يوشك أن يأتي رسول الله فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به " فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال " وأهل بيتي ؛ أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيت أذكركم الله في أهل بيتي " (١) .

فانظروا إلى التكرار في قوله " أذكركم الله في أهل بيتي " في مقام الإغراء والترغيب والحث، يشعر بإعظام سبب هذا التكرار، ويستلزم إكبار حق آل بيت النبي ﷺ، يزيد في درجة هذا الإعظام وهذا الإكبار تكوين الصيغة التي كررها ﷺ حيث يذكرنا بالله، ليضع أمام أعيننا أن الله مطلع علينا ويرى ويعلم ما سنفعله من القيام بحقهم أو التفريط في محبتهم، وهذا يجعل قوله ﷺ يحتل معنى التحذير إلى جانب الترغيب والحث، فهو يحذرنا غضب الله إذا نحن فرطنا في حقهم وخاصةً بعد الإشارة إلى قرب أجله ﷺ

فقد أكد هذه الإشارة بأداة الاستفتاح " ألا " تنبيهاً لكل غافل ثم بالنداء العام الخدوف الأداة " أيها الناس " ثم بالضمير المؤكد " إن " المرتبطة بما قبلها بالفعل ثم بالتعبير بفعل المقاربة " يوشك " الذي يعطى الوصية أهمية كبرى لكونها وصية مودع .

(١) أخرجه مسلم عن زيد بن أرقم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عليّ ج ٨ ص ١٩٠ رقم

نعود للحديث مرة أخرى لنلاحظ فيه بعض اللمحات البلاغية الأخرى
فمثلاً بلاغة الفصل والوصل في الحديث تجدها متسقة اتساقاً رائعاً مع أسلوب
الحديث .

فالفصل بين قوله " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي "
وبين قوله " كتاب الله ... " استلزمه المقام إذ قوله الأول " إني تارك فيكم ... "
فيه شيء من الإيهام ، هذا الإيهام أنشأ في ذهن السامع سؤالاً عن ماهية هذا
الشيء ؛ فكأن المخاطب لما سمع هذا الكلام قال: وما هو هذا الشيء ؟ فجاء
قوله " كتاب الله " وما بعدها جواباً لهذا السؤال ، فوجب الفصل بينهما
لأنه لا يصح العطف بين السؤال وجوابه وهذا الموضع يسميه علماء البلاغة
الفصل لشبهه كمال الاتصال ، لأن الجملة الثانية وقعت جواباً لسؤال اقتضته
الجملة الأولى .

كذلك الفصل بين قوله " كتاب الله " وقوله " جبل ممدود من السماء إلى
الأرض " وبين قوله " عترتي " وقوله " أهل بيتي " أيضاً اقتضاه المقام ؛ وذلك
لوقوع الجملة الثانية في كل منهما من الأولى موقع عطف البيان، وذلك لما
أفادته من توضيح وبيان، فيكون الفصل بينهما لكمال الاتصال .

أيضاً الوصل بين قوله " لن يتفرقا حتى يرثا على الحوض وبين قوله "
كتاب الله وعترتي " وذلك لوجود الجهة الجامعة بينهما وما بينهما من تناسب في
المعنى واشتراك في الوضع الإعرابي، حيث إن الضمير في قوله لن يتفرقا يعود على
" كتاب الله وعترتي " كما أن بينهما اتفاقاً في الخبرية لفظاً ومعنى ، وهو ما
يسمى بالوصل للتوسط بين الكمالين .

أيضاً من روائع البلاغة في هذا البيان الشريف ما تحقق في الحديث من صور الإطناب.

فمثلاً الاحتراس^(١) الذي في قوله " إن تمسكتم " داخل في قوله " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا " لتفيد نكتة أن الخير والنجاة اللذين في كتاب الله وعترة النبي ﷺ مشروط بالتمسك بهما والامتثال لهما ، وبغير هذا التمسك لن ينفعهم القرآن ولا أهل بيت النبي ﷺ .

كذلك الاعتراض بقوله " أحدهما أعظم من الآخر " ليفيد به رفع درجة القرآن عن درجة آل البيت ، وهذا إعظام لقدرة القرآن وبيان لمكانته ، إذ إنه كلام رب العالمين .

وعلى الجملة فالحديث من الوصايا الجامعة التي تأخذ بأيدي المؤمنين إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة ، وترسم لهم طريق السعادة من خلال التمسك بكتاب الله وصرف الوجوه والقلوب نحو آل بيت النبي ﷺ ، فهما شفيعان للعبد يوم القيامة يردا على رسول الله ﷺ الحوض فيشكروا صنيعه عند رسول الله ﷺ فحينئذ هو بنفسه يكافئه والله تعالى يجازيه الجزاء الأوفى .

أيضاً مما جاء في بيان وجوب محبة آل بيته ﷺ ما رواه الترمذي : عن أسامة بن زيد قال طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو فلما فرغت من حاجتي قلت ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ قال فكشفه فإذا حسن وحسين عليهما السلام على وركيه فقال هذان ابناي وابنا ابنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما^(٢) .

(١) الاحتراس " هو أن يؤتى في كلام يومهم خلاف المقصود بما يدفعه " . الايضاح ص ٢٣٥ .

(٢) أخرجه الترمذي ٥٥٦ ص ٦٥٦ كتاب المناقب باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ .

هذا البيان الشريف يبين فضل الحسن والحسين ابني بنت رسول الله ﷺ ومدى محبة النبي ﷺ لهما، كما يبين وجوب محبتهما على الأمة . فالنبي ﷺ يخبر عن محبته لهما ويشهد الله على ذلك، ثم يدعو الله أن يحبهما وأن يحب كل من أحبهما .

وتتضح محبة النبي ﷺ للحسن والحسين من خلال وصف الصحابي الجليل أسامة بن زيد لخال النبي ﷺ عندما قابله يقول : " فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ قال فكشفه فإذا حسن وحسين " فقلوه : " وهو مشتمل على شيء " يرسم صورة ضم النبي ﷺ للحسن والحسين إليه وتغطيتهما بثوب، فالشمل هو كساء يشتمل به أي يغطي به الشيء ويحجب " (١)

فهو ﷺ لشدة حبه لهما يضمهما إليه ويجمعهما تحت ثوب واحد ويحجبهما عن عيون الناظرين .

لقد اتضح لمن رأى النبي ﷺ على هذه الحالة من ضم الحسن والحسين إليه تحت شملة شدة حبه لهما . ثم تراه يفصح عن هذا الحب بقوله . " هذان ابناي وابنا ابنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " فأنت تلحظ شدة شغفه ﷺ بهما منذ أداة الإشارة " هذان " والتي وقعت مسنداً إليه مذكوراً في حين كان يمكن الاستغناء عنه لورده في السؤال من الصحابي الجليل في قوله : " ما هذا الذي أنت مشتمل عليه " ولعل السر في ذكره هو زيادة التقرير

(١) يراجع مختار الصحاح مادة شمل ص ٣٤٧ .

والإيضاح ؛ لأن الذي سيضاف إليه خبر مهم فأراد أن يصل الخبر في صورة واضحة مؤكدة ، فأعاد المسند إليه مرة أخرى ليرتبط الكلام ويتضح المقصود .

كما أن في مجيء المسند إليه اسم إشارة " هذان " ولم يقل " هما ابناي " مثلاً غرضاً بلاغياً وهو تمييز المسند إليه أكمل تمييزاً ؛ لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يحدد المراد تحديداً ظاهراً ويميزه تمييزاً كاشفاً ، وهذا التحديد والتمييز مقصد مهم في الكلام لأنه يمنح الخبر مزيداً من القوة والتقرير ^(١) .

كما أن في اختيار اسم الإشارة " هذان " والتي تستعمل في الإشارة إلى القريب ما يوحي بقرب الحسن والحسين من قلب النبي ﷺ ومحبته لهما، وهذا مما يجعل التناسب واضحاً بين اللفظ والمعنى .

ثم تتجسد محبته ﷺ لهما واضحة جلية في إخباره بقوله: " ابناي وابنا ابنتي " فهما ابنا النبي ﷺ حكماً لأنه جدّهما، والجد في مقام الوالد وابنا بنته حقيقة . فهما أيضاً بضعة منه، وبذلك تتأكد وشائج المحبة الرابطة بينه وبينهما، يزيد روابط هذه المحبة تأكيد إضافتهما إليه عن طريق الضمير العائد إليه ﷺ " ابناي - بنتي " .

وفي الإخبار عن كونهما ابنيه ما يمهد للتصريح بمحبته ﷺ لهما وللحث على محبتهما .

ثم بعد هذا التمهيد جاء التصريح بقوله " اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما " مؤكداً بأشد أنواع التأكيد، حيث صدره بنداء الخالق جل جلاله لإشهاده على حبهما . فأصل قوله: " اللهم " يا الله والميم المشددة فيهما

(١) يراجع خصائص التراكيب د / أبو موسى ص ٢٠٠ .

عوض عن " يا " ^(١) وكأنه ﷺ يقول اللهم اشهد على حيي لهما، وذلك تمهيداً لطلب محبة الله لهما في قوله " فأحبهما " إذ إن محبة النبي ﷺ لهما كالسلم والوسيلة إلى محبة الخالق لهما.

ثم تراه ﷺ يزيد في تقرير محبته لهما وذلك عن طريق دعائه بمحبة الله لكل من أحبهما فهو لم يكتف بالدعاء لهما بمحبة الله بل دعا لكل من يحبهما فقال " وأحب من يحبهما " والقصد من ذلك تقرير خبر محبته لهما في نفوس المخاطبين، والحث والترغيب على بذل المخاطبين المحبة لهما حتى ينالوا محبة الله تعالى .

فالجملته الإنشائية " اللهم إني أحبهما " من بدايتها إلى نهايتها تفيض بمحبة النبي ﷺ إذ إن النداء فيها اللهم وفعلا الطلب " فأحبهما وأحب من يحبهما " قد خرجا إلى معنى التضرع والدعاء .

والتضرع والدعاء منه ﷺ من أجل الحسن والحسين من أكبر الأدلة على محبته لهما ، بل هما من أكبر الدواعي التي تدعونا إلى التفاني في محبتهما ومحبة كل أمر يوصلنا إلى قربهما ، فقربهما قرب من رسول الله ، والقرب من رسول الله قرب من الله تعالى، فاللهم ارزقنا هذا القرب واجعلنا من أهل محبتك، ومحبة رسولك وآل بيته الأطهار .

وأما عن بلاغة الفصل والوصل في الحديث فنراها تتمثل في نقطتين :

الأولى : وهي الفصل بين الجملة الأولى " هذان ابناي وابنا ابنتي " وبين الجملة الثانية " اللهم إني أحبهما .. " والسر في ذلك هو الفصل لكمال الانقطاع لكون الجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى والثانية إنشائية لفظاً ومعنى .

(١) ينظر النحو الوافي لعباس حسن جـ ٤ ص ٣٦ ط دار المعارف الطبعة التاسعة .

والثانية : الوصل بين قوله " فأحبهما " وقوله " وأحب من يحبهما " والسر في هذا الوصل هو القصد للتشريك في الحكم الإعرابي، واتصالهما في المعنى، ووجود الجهة الجامعة بينهما .

وهذا يكون البيان قد رسم صورة محبة النبي ﷺ لآل بيته وعترته، كما بين أن محبة المؤمنين لآل البيت الأطهار قرينة من الله تعالى لأنها توصل إلى محبة النبي ﷺ، إذ إنه ﷺ دعا لمن أحب الحسن والحسين بأن يحبه الله، فمن أراد أن يحبه الله فليحافظ على محبة رسوله ﷺ باتباع سنته وصرف القلوب إلى آل بيته .

- أيضاً مما جاء في بيان محبة آل بيت النبي ﷺ ما رواه الترمذي قال حدثنا أبو داود سليمان الأشعث عن محمد بن علي بن عباس عن أبيه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لحي" (١) .

هذا الحديث الشريف نصّ قاطعٌ في وجوب محبة الله عز وجل ومحبة رسوله ومحبة آل بيت النبي ﷺ، وحتى يكون أمر النبي ﷺ أحرى بالقبول تجده ﷺ يعلل كلامه فيقول: " أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه " فالله تعالى قد أحسن إلينا، وفاضت نعمه علينا، ووصلنا بره وعطفه ولطفه ومن كان كذلك كان أحق بالحب، ومحبة الله تتمثل في التزام طاعته .

ثم يعلل بعد ذلك الأمر بمحبته هو ﷺ بأن الله يحبه، فبمحبة الله له تحب محبته على المؤمنين ومحبته تتمثل في اتباع سنته والسير على هديه وذلك مصداقاً لقول الله تعالى على لسان نبيه "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله" (٢) .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ ج ٥ ص ٦٦٤ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ٣١ .

ثم بعد ذلك وجوب محبة آل البيت وذلك لأنهم خيرة النبي ﷺ وأحب الخلق إليه ومحبتهم تقتضي توقيرهم وتبجيلهم مصداقاً لقوله تعالى: { قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ } الشورى (٢٣) .

وليبيان أن هذه المحبة التي نص عليها ﷺ في الحديث وأنها جزء من الإيمان تراه يستخدم ﷺ الأسلوب الإنشائي المباشر، وهو أسلوب الأمر المباشر بصيغة المباشرة " افعل " التي تقتضي الإلزام والوجوب دون غيرها من الصيغ التي تدل على الطلب دلالة غير مباشرة، كما أن في تكرير صيغة الأمر " أحبوا " ما يقتضي تأكيد الأمر بوجوب هذه المحبة ، إذ إنها دليل الإيمان لأنها تقتضي الامتثال والطاعة .

كما أن في استقلال الأمر بالمحبة بأنواعها الثلاثة (محبة الله ، ومحبة رسوله، ومحبة آل بيته) والعطف بينهما بالواو التي تقتضي المغايرة، ما يشعر بعظمة هذه الأنواع وأن إحداها لا تغني عن الأخرى، بل كل واحدة تقتضي وجود الأخرى، فمحبة الله تقتضي محبة رسوله ، ومحبة رسوله تقتضي محبة آل بيته .

والذي سوغ الوصل بالواو بين هذه الجمل الثلاث هو وجود الجهة الجامعة لارتباطها في المعنى، لما بينها من تناسب ، لأن الجمل الثلاث جمل فعلية فعلها واحد لفظاً ومعنى ، كما أنها متفقة في الإنشائية لفظاً ومعنى، وهذا ما يسميه البلاغيون " التوسط بين الكمالين " وهو موضع من مواضع الوصل المعروفة .

وهذه الجمل الثلاث بما بينها من ترابط وتلاحم رسمت لوناً بديعاً رائعاً أسماء أهل البديع حسن النسق " وهو أن تأتي الكلمات أو الجمل متتاليات

متلاحمات تلاحماً سليماً بحيث يظن السامع أنها إذا انفصلت تجزأ حسنها ونقص
كماها وتقسم معناها^(١) .

فأنت ترى إتيان هذه الجمل الثلاث معطوفاً بعضها على بعض بواو
النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنها جاءت مندرجة في المعنى على
حسب الأهمية فقد بدأ ﷺ بالأهم وهو محبة الله لأنه هو المتفضل علينا بجميع
نعمه فهو الأحق بصرف المحبة إليه . ثم بعده في الأهمية وهو محبة رسوله الذي
حوى كل كمال بشري والذي بسببه استنقذنا من النار ثم محبة آل بيته نخبته ﷺ
لهم .

فانظر إلى هذا الانسجام الرائع الذي نتج عن حسن النسق بالعطف وما
جاء منها من بديع غير مقصود تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل غير
متكلف فهو ﷺ قد بعث بجوامع الكلام وأوتي ذروة الفصاحة والبيان .

(١) يراجع تحرير التحبير لابن أبي الأصبغ المصري ص ٤٢٥ .

الفصل الثاني

بلاغته ﷺ في بيان محبة الله لعباده وأسباب تحصيلها

الحبة الإلهية شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تلقي بظلالها على قلوب أولياء الله عز وجل الذين أحبههم فوفقههم إلى محبته، ومن رحمة الله بعباده وكرمه لهم ولطفه بهم أن شرع لهم وسائل يصلون بها إليه وأبواباً يدخلون منها عليه تلك منة عظيمة إن دلت على شيء فإنما تدل على سبق محبته عز وجل لهم في الأزل كما يفيدته قوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ المائدة: ٥٤ .

يقول العلامة الجمل " وصفهم بكونه تعالى يحبهم وبكونهم يحبونه وقدمت محبة الله تعالى على محبتهم لشرفها وسبقها ، إذ محبته تعالى لهم عبارة عن إلهامهم الطاعة وإثابته إياهم عليها " (١) .

وقد فطن إلى سبق محبة الله للعبد وأنها هي الموافقة إلى محبة العبد لله أناس نور الله أفئدتهم بنوره .

فقد روى أنه كان لعبد الله بن الحسين - عليه السلام - جارية عابدة زاهدة تقوم الليل وتصوم النهار فاستيقظت ذات ليلة فرآها تصلي ، فلما فرغت من صلاحها خرت ساجدة لربها تهتف باسمه تعالى وتناجيه وتقول : إلهي بحبك لي إلا غفرت لي - فقال لها ويحك لا تقولي هذا، وقولي بحبي لك فربما لا يحبك خالقك، قالت : يا سيدي لولا حبه لي لما أنامك الليل وأقامني بين يديه، ولولا حبه لي لما أخرجني من دار المشركين وكتبني في ديوان المؤمنين ، قال : وأنا حبا لله وإكراماً لوجهه قد أعتقتك ، فاذهبي حيث شئت فقالت : شكر الله لك ، والآن فاسمع

(١) الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ٥٠٢ مطبعة الحلبي .

مني ، فقال إني سامع ، قالت لفتك إلى مناجاتي لله تعالى قولي بحبك لي إلا غفرت لي ونسيت قوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ هلا وقفت طويلاً عند قوله " يحبهم ويحبونه " وتأملت سبق حبه إليهم على حبه لهم ، ما أدراك أنت بالحب ؟

الحب فيه حلاوة ومرارة وتنسك وتعبد وبشائر

ما شاء يصنع بالحب فإنما حكم الهوى بيد الحبيب الأمر^(١)

غير أن محبة الله في قلب العبد في حاجة إلى عناية ورعاية وتنمية شأنها شأن الزرع متى تعهده صاحبه وأزال عنه الآفات والحشائش وسقاه بالماء فإنه ينمو ويتعرعرع ، وإن تركه ذبل وأوشك على الهلاك، ويتحقق ذلك كله بالنسبة للمحبة في قلب العبد إذا ما داوم على الطاعات وأدى ما افترضه الله عليه وزاد في القرب والنوافل . على ما سنينيه إن شاء الله^(٢) .

(١) حلية الأولياء جـ ٩ ص ٨٢ دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) يراجع المحبة في القرآن والسنة للدكتور حسن أمين مصري ص ٧٢ مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

المبحث الأول

الطاعة سبيل إلى نيل محبة الله

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته" (١) .

هذا الحديث الشريف يبين منزلة عظيمة من منازل القرب الإلهي، وهو من الأحاديث القدسية الجليلة التي بينت محبته عز وجل لأوليائه ومدافعتهم عنهم ، كما يبين الحديث السبيل إلى نيل هذه الدرجة - درجة الولاية - عن طريق الترقى على سُلّم العبادة، والتبتل في محراب الخُضوع له سبحانه ، فإذا ما وصل العبد إلى الدرجة التي يرضاها الرب جلّ وعلا حفظ الله عليه جوارحه، فلا تنطلق إلى معصية، ولا تخرج عن طوق العبادة .

يقول الشيخ الطيبي في معنى " كنت سمعه الذي يسمع به ... الخ (أي) أجعل سلطان حي غالباً عليه حتى يسلب عنه الاهتمام بشيء غير ما يقربه إليّ ، فيصير منخلعاً عن الشهوات ، ذاهلاً عن الحظوظ واللذات ، حيثما تقلب وأيما توجه لقي الله تعالى بمرأى منه ومسمع ، لا تطور حالته الغفلة ، ولا يحول دون شهوده الحجية ولا يعتري ذكره النسيان ، ولا تخطر بباله الأحداث

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقائق باب التواضع رقم ٦٥٠٢ .

والأعيان ، يأخذ بمجامع قلبه حب الله تعالى فلا يرى ولا يسمع ولا يفعل إلا ما يحب (١) .

وأسلوب الحديث هنا أسلوب خبري جارٍ على لسان المصطفى ﷺ رواية عن الله تعالى ؛ إذ إنَّ الحديث حديث قدسي له جلالته وهيبته، لذا صدره ﷺ بأسلوب من أساليب التوكيد عناية بالخبر وتنبيهاً للمخاطبين فقال :

" إن الله تعالى يقول " وفي إسناد الرسول ﷺ الكلام إلى الله ارتقاء بمستوى الكلام البشري إلى الكلام الإلهي ، وهذه النقلة تعطي الخبر صفة القدسية والجلالة التي توفر له عناية المخاطبين واهتمامهم وإقبالهم كلية ، إذ الفرق بين كلام الله وكلام خلقه كالفرق بين الله وخلقته، وهذا حديث قدسي معناه لله ولفظه للرسول ﷺ .

وبعد أن تمَّيات النفوس لتلقي الخبر الذي يرويه ﷺ عن الله تعالى وقدم له بهذا التوكيد " إن - واسمية الجملة " انتقل إلى مضمون هذا الخبر وهو مقول القول : " من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " والمتدبر للعبارة يستشعر غيرته تعالى على أوليائه من خلال التعبير " آذنته بالحرب " أي أعلمته بالمعاداة ، ومن يطيق حرب رب العالمين سبحانه !!؟ .

بل إن ورود هذا الخبر في أسلوب الشرط الذي يوحي بوقوع الجزاء مباشرة إذا تحقق فعل الشرط يضيفي كمّاً كبيراً من التهديد والوعيد .

يقول الإمام القسطلاني " فقد آذنته بالحرب " أي أعلم به ما يعمل العدو المحارب من الإيذاء ونحوه ، وفيه تهديد شديد ، لأن من حاربه الله أهلكه " (٢) ،

(١) شرح الطيبي ج٤ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للإمام القسطلاني ج٩ ص ٢٨٩ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

كما أن في ترتب الجزاء بعد الفاء الواقعة في جواب الشرط ما يوحي بسرعة هذا الجزاء وتعقيبه دون مهلة زمنية، وهذا الذي تفيده الفاء من الترتيب والتعقيب مما يزيد التهديد شدة وعنفاً .

ثم انظر إلى تأكيد تحقق وقوع هذا الجواب بدخول " قد " التي دخلت على الفعل الماضي " فقد آذنته " والذي بدلالته يفيد وقوع الحدث ، على الرغم من أن هذا التهديد زمنه المستقبل ؛ وإنما عبر بالماضي المؤكد بـ " قد " ليشير إلى تحقق وقوعه إمعاناً في التهديد، حتى لا يجروا متبجح على إيذاء أحد من أولياء الله .

وكيف يقوى هذا المتبجح على إيذاء أولياء الله بعد أن علم دخولهم في حصن الله المنيع الذي أفاده القصر في قوله " من عادى لي ولياً " حيث قدم الجار والمجرور " لي " على متعلقه " ولياً " لإفادة التخصيص والقصر ، لأن المعنى تخصيص ولاية هذا العبد وقصرها على كونها لله لا يشرك معه شيئاً . قصر صفة على موصوف ^(١)

والتعبير بقوله " آذنته بالحرب " معناه استحق محاربتي إياه وهو مجاز مرسل علاقته اللزومية ، حيث عبر باللازم وهو الإيذان بمعنى الإعلام ^(٢) وأراد الملزوم وهو الاستحقاق ، وكذلك قوله " بالحرب " حيث عبر بالحرب وأراد لازمها وهو الإهلاك والإذلال ؛ لأن حقيقة الحرب إنما تكون بين متحاربين ، والمخلوق في أسر الخالق فكيف يحاربه أو يقوم له ؟ ^(٣) .

(١) يراجع أحاديث نبوية شريفة د / محمود فرج العقدة ص ٤٤ ط دار الطباعة الحممدية .

(٢) ينظر : أساس البلاغة للزمخشري جـ ١ ص ٨ مادة أذن .

(٣) يراجع : كتاب أحاديث نبوية شريفة ص ٤٤ ، فتح الباري جـ ١٧ ص ٣١٩ .

يقول الإمام القسطلاني : " فقد آذنته بالحرب " قال الفاكهاني : هو من
الجزاز البليغ ، لأن من كرهه من أحب الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن
عانده أهلكه ؛ وإذا ثبت هذا في جانب المعادة ثبت في جانب الموالاتة، فمن وإلى
أولياء الله أكرمه الله (١) .

ثم بعد أن بين حق هذه الولاية من النصرة والإيدان بالحرب على من
عادها بين السر في تفصيل هؤلاء الأولياء ودفاعه عنهم بقوله " وما تقرب إليّ
عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه "

وتلاحظ القرب بين الولي وبين الله تعالى من خلال إضافته سبحانه إليه في
قوله " عبدي " إضافة تشريف وتكريم كما في قوله في حق رسوله ﷺ :
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١ .

والنقرب هو طلب القرب، وهو في الأصل معنى حسي، وقد أريد به هنا
لازمه وهو فعل ما يرضي الله سبحانه وتعالى، ولذا يقول ابن حجر " وقرب
العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه ثم بإحسانه " (٢)

وفي تقديم الجار والمجرور " إليّ عبدي " يشير إلى وجوب توافر شرط
الإخلاص في القصد وبدونه لا يتحقق القرب .

وفي تنكير كلمة " شيء " يفيد العموم أي بأي شيء حتى ولو كان قليلاً .
وقوله " أحبّ إليّ " تعبير بأفعل التفضيل يقتضي أن تكون وسائل القرب كثيرة

(١) إرشاد الساري ج٩ ص ٢٨٩ .

(٣) فتح الباري ج١٧ ص ٣١٩ .

وأحبها إلى الله تعالى أداء الفرائض^(١) كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من أعمال الإسلام .

وبعد أن بين أن التقرب بالفرائض أحب شيء إليه شرع سبحانه في بيان وسائل القرب الأخرى التي تصل بالعبد أعلى درجات المحبة الإلهية فقال : " وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه " وقد عطف هذه الجملة على سابقتها لوجود المناسبة والجهة الجامعة بينهما، لأنها من جنسها فالتقرب بالنوافل هو من جنس أعمال الفرائض كالنافلة في الصلاة ، والنافلة في الصيام، والنافلة في الصدقة وغيرها، كما أن الجملتين تشتركان في الخبرية لفظاً ومعنى فحسن الوصل لما يسميه البلاغيون بالتوسط بين الكمالين.

وانظر إلى التعبير بقوله " وما يزال " وما توحيه صيغة يزال من المواصلة والاستمرار في التقرب بالنوافل ثم اتباعها بصيغة "يتفعل " يتقرب بزيادة التاء الدالة على طلب القرب مما يشعر بتفاني العبد في محبة ربه واتخاذ نوافل الطاعات زلفى إلى رضا ربه ، ثم استعمال " حتى " التي تدل على الغاية مما يوحي بطول فترة التنفل والتقرب .

يقول الشيخ الطيبي: " فلا يزال العبد يتقرب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات ويرتقي من مقام إلى آخر بأصناف الرياضات حتى يحبه الله فيستغرق بملاحظته جناب قدسه بحيث ما لاحظ شيئاً إلا رأى الله فيه وهو آخر درجات السالكين وأول درجات الواصلين^(٢) وحقيقة الحب ميل القلب إلى المحبوب - وهو محال على الله - والمراد به هنا لازمته من إحسان الله إلى عبده وإثابته إياه

(١) شرح الطيبي ج٤ ص ٣٩٨ .

(٢) شرح الطيبي ج٤ ص ٣٩٦ .

وفعل ما يقع من نفسه موقع السرور^(١) .

قوله " فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها " هذه الجملة معطوفة بالفاء على الجملة السابقة " وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " لإفادة الترتيب والتعقيب أي أن العبد يتقرب بالنوافل حتى يصل إلى درجة القرب " محبة الله " فإذا وصل إلى هذه الدرجة حصل له ما يأتي - على الفور دون تراخي ، وقوله " كنت سمعه الذي يسمع به الخ " تشبيه تمثيلي رائع يُظهر مدى حفظ الله لهذا العبد الرباني من التوفيق في الطاعات والبعد عن المعاصي .

يقول الشيخ الطيبي : " سئل أبو عثمان الخيري عن معنى هذا الخبر فقال: كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الاستماع وبصره في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي .

ثم قال هذه أمثال ضربها والمعنى - والله أعلم - توفيقه للأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء ، يعني ييسر له فيها سبيل ما يحبه، ويعصمه من موقعة ما يكره من إصغاء إلى اللهو يسمعه، ونظرٍ إلى ما هُمى عنه يبصره ، وبطش ما لا يحل بيده وسعي في الباطل"^(٢) .

وقيل فيه مضاف محذوف والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل وحافظ بصره - كذلك إلى آخره^(٣) .

(١) أحاديث نبوية شريفه ص ٤٤ .

(٢) شرح الطيبي ج٤ ص ٣٩٦ .

(٣) عمدة القاري ج١٥ ص ٥٧٧ .

يقول ابن القيم " أخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون ثم بعدها النوافل ، وأن الحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بخبر محبوبه، وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزاماً لقلبه مستولياً على روحه استيلاء الحبوب على محبة الصادق في محبته ولا ريب أن هذا الحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به ، فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه، فالباء هنا للمصاحبة وهي مصاحبة لا نظير لها ... وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل ، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ، ويجلبان إليه الحب والبغض فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد بالله ، وبصره بالله كان محفوظاً في آلات إدراكه ، وكان محفوظاً في حبه وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه " (١) .

والغرض من هذا التمثيل تقرير حال هذا الولي وبيان مدى تولى الله له في جوارحه فإن معونة الله للولي أجل وأعلى من معونة جوارحه وأعضائه . وتتجلى قيمة هذا التمثيل في تصوير الغائب بصورة الشاهد وتعبير الأمور المعنوية بالأمور الحسية لتفيد إنساناً للنفوس وتبصيراً للقلوب (٢)

وبعد أن بين طريقة حفظه لوليه المحب له بهذه الصورة التمثيلية الرائعة التي أعانت العقول على تصور المعنى وإدراكه انتقل إلى بيان منزلته عنده وكرامته

(١) الداء والدواء لابن القيم ص ١٩٢، ١٩١ ط دار التقوى للتراث الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م

(٢) يراجع أحاديث نبوية شريفة ص ٤٥

عليه يقول : " وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه " وتأمل التعبير بإن التي تفيد التقليل دون إذا ليصور استغراق هذا العبد الرباني في طاعة سيده لا يلتفت إلى زينة الدنيا زاهداً فيها؛ لذلك قل ما يسأل ربه شيئاً من هذه الدنيا؛ لأن حبه لمولاه يملك عليه كل كيانه فلا يلتفت إلى سواه ولذا ساغ التعبير بإن التي تفيد التقليل .

وحذف المفعول من قوله " وإن سألني " يفيد التعميم والتقدير سألني أي شيء .

ومجيء جواب الشرط " لأعطينه " مؤكداً باللام ونون التوكيد الثقيلة يوحي بسرعة إجابة دعائه وتلبية طلبه إكراماً له وحباً . وكذا في قوله " ولئن استعاذني لأعيذنه "

وقوله " وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته " هذا من باب التمثيل أو الاستعارة التمثيلية، لأن التردد في حق الله غير جائز .

يقول الإمام الطيبي " وهو من باب التمثيل ، شبه صورة توقف الله تعالى وتأخيره العبد عما يسوؤه من الموت الذي ظاهره المضرة وتنبو عنه بشرية العبد، وفي ضمنه المنافع والوصول إلى غاية المطالب .. بصورة أب مشفق بولده متعطف له يريد إيصاله إلى ما يتم به كمال نفسه من العلم والأدب - ولا يتم ذلك إلا بنصب التكرار وتعب السهر، والولد يكرهه، وهو لا يريد مساءته ولا أن يترك ما هو صلاحه فيه - فيتوخى لطائف الحيل حتى يميل إليه قلب الولد ويتزع إليه ، ثم أدخل صورة المشبه في جنس المشبه به مبالغة، ثم استعمل في المشبه اللفظ الذي كان مستعملاً في المشبه به من التردد.

ثم يقول : وهذا التأويل موافق للحديث المتفق على صحته " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، والموت قبل لقاء الله " قالت عائشة إنا لنكره الموت ، قال ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه " (١) هذان الحديثان توأمان بلغا غايتيهما في دقة المعنى ورقة الألفاظ (٢) .

وقد نقل الإمام العيني عن الخطابي تأويل هذا التردد فقال " له عندي تأويلان: أحدهما : أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه أو فاقة تتزل به فيدعو الله فيشفيه منها ويدفع عنه مكروهها فيكون ذلك من فعله كترديد من يريد أمراً ثم يبدو له فيه فيتركه ويعرض عنه .

والثاني : أن يكون معناه : ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في نفس المؤمن كما روى في قصة موسى عليه السلام وما كان من لظمة عين الملك وتردده إليه مرة بعد أخرى . قال وحقيقة المعنى على الوجهين عطف الله على العبد ولطفه به وشفقته عليه (٣)

من هنا يتضح منزلة المحبين وكرامتهم على الله حيث يفتح لهم أبواب الطاعات ليصلوا من خلالها إلى محبته فإذا أحبهم كان معهم بتوفيقه وعنايته ودفع عنهم ما يكرهون لأنه لا يجب مساءتهم .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقائق باب من أحب لقاء الله رقم ٦٥٠٧ ، وأخرجه مسلم في كتاب

الذكر والدعاء والتوبة باب من أحب لقاء الله رقم ٢٦٨٤

(٢) شرح الطيبي ج٤ ص ٣٩٩

(٣) عمدة القاري ج١٥ ص ٥٧٨

أيضاً مما جاء في الترغيب في الأعمال التي تقرب إلى الله ويحبها الله ما حث عليه ﷺ من كثرة التسييح والتحميد وبين أنها أحب الأعمال إليه تبين ذلك من الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ " ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله فقال : إن أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده " (١) .

فالحديث لمحة من المصطفى ﷺ للمحبين لله تعالى يرشدهم فيها كيف يسلكون طريق محبته وكيف يتقربون إليه بما يرضيه فالتسييح والتحميد من أحب الكلام إلى الله تعالى لما فيه من معنى التزبه والتعظيم . يقول الشيخ الطيبي (٢) لمح به إلى قوله تعالى " وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ " سورة البقرة : ٣٠ .

وتتجلى بلاغته ﷺ هنا حيث ألقى الخبر إلى هذا الصحابي بعد عرض وتشويق، ليستحضر عقله وقلبه حتى يأتي الخبر بعد طلب هذا الصحابي فيقع من نفسه موقع الاهتمام ، وهكذا في كل الأمور المهمة لا يبتدئ المتكلم البليغ المخاطب بالخبر مباشرة بل يستفتح بأداة تنبيه أو عرض ليشوق نفس السامع إلى الخبر فيستعجل معرفته فيطلب ذلك بنفسه، ثم يأتي الخبر بعد ذلك في صورة جواب لهذا السؤال فيكون الخبر كأنما جاء بناءً على طلب السامع أو المخاطب وهذا ما فعله النبي ﷺ فقال : " ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله " ابتداء المخاطب بهذا السؤال في صورة العرض لتهيئة نفسه وتشويقها إلى الخبر " ولا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب فضل سبحان الله وبحمده ج ٩ ص ٥٠٧ وأخرجه الترمذي كتاب الدعوات باب أي الكلام أحب إلى الله .

(٢) شرح الطيبي ج ٤ ص ٤٠٠ .

شك أن السياق على هذا الترتيب من عرض السؤال مفتتحاً بأداة العرض . ثم تعقيبه بعد ذلك بالجواب يقرر مضمون الجواب ويسوقه إلى أعماق النفس لوقوعه موقع المنتظر المطموح إلى علمه " .

فإذا انضم إلى هذا العرض وقوع هذا المخبر به في صورة أفعل التفضيل " أحب " التي تدل على مبالغة في الفعل ازداد شوق المخاطب إلى سماع هذا الخبر وزادت لهفته إليه .

ولذا تراه لم يستطع الانتظار والصبر فاستعجل قائلاً " يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله " .

فيأتي الجواب منه ﷺ ليروي هذه الغلة التي أحدثها هذا التشويق والتطميع " أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده " وانظر إلى إعادة ذكر المسند إليه " أحب الكلام إلى الله " بالرغم من ذكره في سؤال المخاطب ومن ذكره أيضاً في عرضه ﷺ في أول الحديث تراه يشير ويؤكد على أن الخبر .

" سبحانه الله وبحمده " موصوف بهذه الأفضلية التي دلت عليها صيغة أفعل التفضيل " أحب " ليركز في ذهن المخاطب وفي ذهن كل سامع أن هذه العبارة البسيطة "سبحان الله وبحمده " أحب وأفضل الكلام الذي يقوله العبد ؛ لأنها تشتمل على التزيه والتعظيم له سبحانه وتعالى ، فالله عز وجل يجب أن يسمعها من العبد كثيراً .

ومجيء لفظة الكلام في قوله " أحب الكلام إلى الله " على صيغة الجمع مع أنها جملة واحدة هي " سبحان الله وبحمده " يشير إلى تكرير هذه الجملة والإكثار من قولها بمثابة الكلام الكثير الذي هو أفضل الكلام وأحبه إلى الله تعالى .

وأل في الكلام ليست للجنس التي تفيد العموم، وإنما هي للعهد لتفيد انصراف الذهن إلى أن هذه الأفضلية مخصوصة بكلام البشر حتى لا تتعدى هذه الأفضلية إلى القرآن الكريم الذي هو كلام الله، ولذا يقول الإمام النووي: " وأحب الكلام إلى الله " وفي رواية " أفضل محمول على كلام الآدمي وإلا فالقرآن أفضل ، وكذا قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل المطلق " (١) . وقد يشتهر هذا الحديث مع الحديث الآخر " أفضل الذكر لا إله إلا الله " فظاهرهما يوحى بالتعارض .

وقد رد على ذلك صاحب كتاب تحفة الأحوذى قائلاً " وهذا بظاهره يعارض حديث جابر " أفضل الذكر لا إله إلا الله " وقد جمع القرطبي بما حاصله أن هذه الأذكار إذا أطلق على بعضها أفضل الكلام أو أحبه إلى الله، فالمراد إذا انضمت إلى أخواتها بدليل حديث سمرة عند مسلم " أحب الكلام إلى الله أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " ويحتمل أن يكتفي في ذلك بالمعنى ؛ فيكون : من اقتصر على بعضها كفى لأن حاصلها التعظيم والتزبه ومن نزهه فقد عظمه ومن عظمه فقد نزهه . انتهى " (٢) .

وعلى الجملة فالحديث الشريف لوحة فنية رائعة من الإيجاز البليغ الذي جمع أرقى مقامات العبادة وأفضل سبيل الحبين للمثول في محراب الطاعة بين يدي من يحبهم ويحبونه في جملة واحدة هي " سبحان الله وبحمده " .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٩ ص ٥٧ .

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي جـ ١٠ ص ٥٣ .

أيضاً تعددت الأحاديث التي بينت صوراً من العبادة التي يحب الله عز وجل أن يرى عباده الطائعين عليها منها الحديث الذي رواه مسلم .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ " إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً" (١) .

أيضاً الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أحب إلى الله ؟ قال أدومه وإن قل " (٢) .

(١) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب النهي عن صيام الدهر عن تضرر به جـ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضيلة العمل الدائم جـ٣ ص ٣٢٨ .

المبحث الثاني

علامة محبة الله تعالى للعبد

من علامات محبة الله للعبد بل من ثمار هذه المحبة أن الله تعالى يلقي محبته عليه فلا يراه أحد ولا يسمعه إلا أحبه ، لا لأي سبب من الأسباب ؛ إنما هي عطية من الله تعالى لعبدته قال الله عز وجل في شأن موسى عليه السلام " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي " طه: ٣٩

قال النووي " أي وألقيت عليك محبة عظيمة حاصلة مني واقعة بخلقها فلذلك أحببتك امرأة فرعون حتى قالت لفرعون قررة عين لي ولك " (١) .
وقد جاء في بيانه ﷺ ما يؤكد أن القبول في قلوب العباد وهو من ثمار محبة الله للعبد .

فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي ، جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض " (٢) .

أسلوب الحديث أسلوب خبري خالٍ من أي مؤكد وهذا يتطابق مع حال المخاطبين لما هم فيه من خلوص للذهن من أي شيء يتعلق بهذا الخبر ، فناسبه أن يلقي إليهم الخبر خالياً من أي تأكيد ، كما أن أسلوب الحديث يشعر بثقة المتكلم " ﷺ " حيث إنه لا يشك في قبول المخاطبين للخبر وذلك لأنه ﷺ لا

(١) تفسير النووي المسمى بمراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد للعلامة الشيخ محمد نوري الجاوي

جـ ٢ ص ١٨ مطبعة عيسى الحلبي

(٢) أخرجه البخاري كتاب البر والصلة باب المنة من الله رقم الحديث ٦٠٤٠ ، وأخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً رقم ٢٦٣٧ .

يخبر إلا صدقاً . كما أن الخير نفسه يحمل البشرى للمخاطبين بحبة الله عز وجل ويضع مقياساً يعرف من خلاله كل فرد مدى محبة الله له من خلال قوله " ثم يوضع له القبول في أهل الأرض " فالقبول يفهم منه " أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله عز وجل ، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن " (١) .
والغرض من هذا الخبر هو الفائدة أي إفادة مضمونه، لأن المخاطبين كانوا لا يعلمون عنه شيئاً .

وفي تعبيره ﷺ ياذا دون إن في قوله " إذا أحب الله عبداً " إشارة إلى أن هذه المحبة متحققة الوقوع ، وأن كثيراً من عباد الله يستحقون هذه المحبة وينالونها استناداً إلى قوله تعالى في الحديث القدسي " وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " (٢) .

فأولياء الله الذين يتقربون إلى الله بالنوافل والطاعات فتحقق لهم هذه المحبة، وهذا يناسبه التعبير ياذا دون إن .

وإذا هنا شرطية تحتاج إلى فعل شرط وإلى جواب وقد جاء فعل الشرط بعدها " إذا أحب الله عبداً " وهو فعل المحبة المسند إلى الله تعالى وقد جاء الجواب أيضاً مسنداً إلى الله تعالى " نادى جبريل " أي نادى الله جبريل .

ولعلك تلحظ مجيء فعل الشرط " نادى " على صيغة الماضي ودون وقوع أي فاصل بينه وبين فعل الشرط ، وذلك ليدل على تحقق وقوع الجواب إثر تحقق الشرط مباشرة ، وفي هذا من التكريم ما فيه لهذا العبد .

(١) عمدة القاري ج٥ ص ١٩٧ .

(٢) سبق تخريجه .

ثم انظر إلى ما توحيه لفظة " نادى " من عظمته سبحانه وتعالى مما يتناسب مع قدسيته وعظيم شأنه ، فالله عز وجل ينادي من عليائه - سبحانه جل ثناؤه - على جبريل ليخبره بمحبته لهذا العبد .

كما أن في تخصيص المناذى بأنه جبريل - عليه السلام - ما يشعر بمكانة جبريل عند خالقه وتفضيله له على جميع ملائكته ، والدليل على فضل جبريل وعلو مكانته ، تشريفه بأن يتلقى النداء بنفسه من الخالق جل وعلا .

يأتي بعد ذلك مضمون هذا الخبر في قوله : " إن الله يحب فلاناً فأحبه " ، وهو كما ترى مؤكد بإن واسمية الجملة إمعاناً في تشريف هذا العبد المحبوب ورفعاً لشأنه . بل إن ذكر الله عز وجل له باسمه " يجب فلاناً " هو أرفع مقامات التشريف والتكريم .

والأمر لم يقتصر على محبة الله له بل زاده الله تكريماً بأن أمر جبريل بحبه " فأحبه "

ومحبة الله عز وجل لعبده تتمثل في إرادة الخير له وإنعامه عليه ، ومحبة جبريل والملائكة له على وجهين :

أحدهما : استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعائهم

ثانيهما : أن محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين : وهو ميل القلب إليه واشتياقه إلى لقائه ، وسبب حبهم له كونه محبوباً لله مطيعاً له ^(١) .

" فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء " .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٨ ص ٤٣٤ . وشرح الطيبي جـ ٩ ص ٢٣١ .

انظر إلى تتابع النعم على هذا العبد المحب فبمجرد أمر الله عز وجل لجبريل بحبه تجدد الأمر يسري إلى أهل السماء جميعهم فيحبونه أجمعين .

ولعلك تلحظ امتثال هذا الملائة الأعلى لأمر الله عز وجل بحبة هذا العبد من خلال تتابع الفاء التي تفيد السرعة والتعقيب " فأحبه - فيحبه - فينادي - فأحبوه - فيحبه " وهذه السرعة والتتابع تتناسب مع ملائكة الله عز وجل الذين جبلوا على الطاعة والامتثال ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ التحريم : ٦ .

ثم يسري هذا الحب من السماء إلى الأرض ليشهد أهل الأرض على محبة الله لهذا العبد كما شهد أهل السماء " ثم يوضع له القبول في الأرض " والمعنى : يلقي حب هذا العبد في قلوب الناس فيرضون عنه وتميل قلوبهم إليه .

ولعل التعبير بضم التي تفيد الترتيب مع التراخي مما يتناسب مع أهل الأرض بخلاف أهل السماء الذين كانت الفاء تشير إلى سرعة امتثالهم . فأهل الأرض محبتهم ليست نقية خالصة كأهل السماء ، فأهواء النفس وحظوظ الشيطان لها فيها نصيب . وتخليص الحبة وتنقيتها في القلوب يحتاج إلى وقت لهذا ناسب - والله أعلم - أن تجيء " ثم " هنا .

ثم التعبير عن رضا الناس عنه بلفظ " القبول " يشير إلى أن الحبة تسري في جميع قلوب الخلق الذين يرونه وهو لفظ أعم من الحب ، لأن الحب قد يتطلب المعرفة السابقة ، أما القبول فهو الارتياح والرضا بمجرد رؤيته ، وهذا لا يتطلب أن تكون هناك معرفة سابقة . فمن فضل الله عز وجل على هذا العبد المحبوب أن يوضع له القبول في قلب كل من رآه أو سمع به .

هذه هي العطية والمنحة التي منحها الله من أحبه من عباده حيث شرفه بمحبة الله ثم بمحبة الملائكة ثم بالقبول عند أهل الأرض .

وعلى العكس من ذلك من كان بعيداً عن الله أبغضه الله وأبغضته ملائكته، ثم توضع له البغضاء في الأرض، هذا ما زاده مسلم في روايته حيث قال " وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول :إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل، ثم ينادي أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض "

وانظر ترى نفس التابع في انتقال البغض والكراهية من الله تعالى إلى جبريل، ثم إلى ملائكته، ثم إلى أهل الأرض، كما كان هناك في أمر المحبة بالنسبة إلى العبد الصالح ، والذي قام بأداء هذا التابع هو نفس الحرف " الفاء " التي تفيد الترتيب مع التعقيب .

حتى إذا انتقلت البغضاء إلى الأرض تحول إلى حرف التراخي " ثم " تمشياً مع حال أهل الأرض من عدم اتفاق القلوب على حال واحد ، وتدخل الأهواء والأغراض الدنيوية في تصريف الحب والبغض ، فليست كل القلوب متفقة على إخلاص الحب والبغض لله تعالى وحده .

ولعل هذا التقابل بين الصورتين تقابل النقيض مع النقيض والضد مع الضد مما يخدم كلا الصورتين في زيادة وضوحهما في ذهن السامع ، حتى ينظر في حال نفسه ليرى هل هو ممن وضع له القبول في الأرض فيستبشر بمحبة الله ومحبة الملائكة، أو هو من الصنف الآخر الذي جعلت فيه بغضاء أهل الأرض إشارة إلى بغض الله وبغض ملائكته فيحاول أن يصطلح مع الله لينصلح حاله، وتصطلح معه خلائق الله في أرضه وسمائه .

وعطف إحدى الصورتين على الأخرى بالواو صورة من صور
الوصل يسميها البلاغيون عطف القصة على القصة ، أو عطف مجموعة جمل
على أخرى .

يقول الإمام عبد القاهر : " فأمر العطف إذن موضوع على أنك تعطف
تارة جملة على جملة وتعتمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض ثم
تعطف مجموع هذه على مجموع تلك " (١) .

فمجموعة الجمل في الصورة الأولى تعاطفت وتواصلت بينها بالفاء "
و ثم " كذا في الصورة الثانية ثم عطفت ثاني الصورتين على الأولى بالواو لترتبط
بين مجموع كليهما في جملتين اثنتين .

وهكذا تتجلى بلاغته ﷺ في إبراز صورة العبد المحبوب من قبل الله عز
وجل المكرم بحب الملائكة وقبول أهل الأرض ليعطي بذلك النموذج الأمثل
للعبد الرباني الذي يحبه الله ليكون لنا حافزاً على تلمس كل ما يوصلنا إلى محبة
الله عز وجل من أنواع الطاعات والقربات .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٥ تحقيق محمود محمد شاكر ط مطبعة المدني بالقاهرة الطبعة الثالثة ١٤١٣

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، وأشهد أنه لا إله إلا الله شهادة
تنجيننا يوم القيامة من المهلكات ، وتدخلنا دار الكرامة بأوسع الرحمات .
وأشهد أن سيدنا وعظيمنا محمداً صلى الله عليه وسلم خير البريات وعلى آله
وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فلله الحمد والمنة على ما يسر وهدى وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا
الله ، فقد انتهيت بعونه تعالى وتوفيقه من هذه التطوافة السريعة حول هذه
القضية المهمة وهذه المترلة العظيمة من منازل السائرين إلى الله سبحانه وتعالى -
مترلة المحبة - من خلال ما جاء فيها من حديث النبي صلى الله عليه وسلم .
وقد انتحت الدراسة فيها الناحية البلاغية . تنسبت فيها عبر بيانته صلى الله
عليه وسلم وتعطرت بأريج ألفاظه وعباراته التي بلورت هذه القضية من جميع
نواحيها واتجاهاتها .

وقد استنتجت الدراسة بعض النتائج البلاغية نجملها فيما يلي :

- لما كانت المحبة مترلة عظيمة وشرطاً من شروط تمام الإيمان، بل هي
أوثق عرى الإيمان رأيناه صلى الله عليه وسلم يستخدم في بيان وجوبها أقوى
أساليب التوكيد التي من خلالها يفتن المخاطب إلى خطورة الأمر وأهميته .
فمثلاً عند بيان وجوب محبته على أتباعه وأنها شرط لا يستكمل الإيمان
إلا بها تراه يستخدم أسلوب القسم ، والقسم عند البلاغيين أقوى أساليب
التوكيد وغالباً ما يستخدم عند إنكار المخاطبين . فيقول ﷺ " فوالذي نفسي
بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده " وفي رواية " حتى

أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم يخاطب قوماً هم أشد تصديقاً له وأكثرهم حباً له . إلا أنه صلى الله عليه وسلم نزلهم منزلة المنكرين فأكد كلامه بالقسم - وبهذه الصيغة التي تشعر بالرهبة من مالك النفوس وخالقها - اهتماماً بشأن الخبر ومبالغة في تأكيده وتقريره في النفوس . ليقع في نفوس المخاطبين موقع الاهتمام والخطر .

كذلك تراه ﷺ يستخدم فعل الأمر الصريح المقتضي للوجوب والحتم عند بيان وجوب محبة الله ومحبة رسوله وآل بيته على المؤمنين فيقول : " أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي " وتأكيد على وجوب المحبة تراه يكرر فعل الأمر ثلاث مرات مستقل الأمر بالوحدة والحتمية في كل أمر واحدة من هذه المحبة الواجبة .

- أيضاً تراه ﷺ خلال بيانه لوجوب المحبة ينوع في أساليبه بين الترغيب والترهيب ، فلما رهب المخاطب بعدم تمام إيمانه إلا باستقرار محبة الله ورسوله في قلبه تراه يستخدم أسلوب الترغيب والتشويق ليجتذب قلوب المخاطبين من باب الرضا فيقول " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ... الحديث " فيجعل للإيمان حلاوة ويشوق المخاطب إلى ذوق طعمها من خلال ترسيخ محبة الله ورسوله في قلبه .

- أيضاً تراه ﷺ يستجلب قلوب المخاطبين إلى ترسيخ هذه المحبة في القلوب باستخدامه وسائل التشويق المختلفة فتراه يشوق المخاطبين عن طريق التوشيح . وهو صورة من صور الإيضاح بعد الإبهام بذكر عدد مبهم ثم تفصيله وتوضيحه كما هو في الحديث السابق " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان "

وهي طريقة تثير الانتباه وتسترعي الاهتمام عند المخاطبين وتشوقهم إلى متابعة الخبر في يقظة تامة ، وهي طريقة ناجحة يستخدمها المتكلم البليغ يسترعي بها انتباه المخاطبين .

- أيضاً تراه ﷺ يسترعي انتباه المخاطبين في بيان مترلة المحبين وما أعده الله لهم عن طريق تحويل دفة الحديث إلى المولى تبارك وتعالى مباشرة ليتولى الله سبحانه وتعالى مجازاتهم وذلك في نحو حديثه ﷺ الذي قال فيه " إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به الخ "

هذه هي بعض النتائج التي يمكن استخلاصها أما عن بقية وسائله ﷺ البيانية التي استخدمها في تحديد إطار هذه القضية المهمة فقد فصلت منها ما قدر لي وأعاني الله في توضيحه داخل البحث .

وأسأل الله عز وجل القبول والإخلاص إنه خير مأمول وأكرم مسئول
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإلتقان في علوم القرآن للسيوطي - ط المكتبة الثقافية ١٦٧٣ م .
- الأحاديث القدسية - ط دار المنار .
- أحاديث نبوية شريفة د / محمود فرج العقدة - ط دار الطباعة المحمدية .
- إحياء علوم الدين للغزالي - ط دار المنار .
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم لأبي السعود - ط دار الفكر - بدون تاريخ .
- الإطناب أنواعه وقيمه د / شاعر القطان - ط دار التراث بالمدينة المنورة - ط أولى ١٩٨٦ م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي - مطبعة الحلبي - الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .
- أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني - تحقيق شاعر هادي شكر - مطبعة النعمان الأشرف بالعراق - ط أولى ١٩٦٩ م .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هاشم الأنصاري - مطبعة صبيح - الطبعة الرابعة ١٩٦٨ م .
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تحقيق د / عبد القادر حسين - ط مكتبة الآداب .

- بديع القرآن لابن أبي الأصعب المصري - تحقيق / حفي محمد شرف - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي - مطبعة الحلبي - بدون تاريخ .
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - دار التراث بالقاهرة .
- تحرير التجميع لابن أبي الأصعب المصري - تحقيق / حفي محمد شرف - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- تحفة الأحمدي لشرح جامع الترمذي للمباركفوري - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .
- تحفة المحتاج لعمر بن محمد - ط دار حراء بمكة المكرمة - ط أولى ١٤٠٦ هـ .
- التصوير الفني في الحديث النبوي د / محمد لطفى الصباغ - ط المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٨٨ م .
- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير - ط دار إحياء الكتب العربية .
- تفسير النووي لمحمد نوي الجاوي - مطبعة الحلبي .
- تهذيب مدارج السالكين لابن القيم - هذبه / عبد المنعم صالح العلي - ط دار الغد العربي .
- تيسير الوصول إلى جامع الأصول للزبيدي - ط الحلبي ١٣٥٣ هـ .
- الجامع الصحيح أو سنن الترمذي - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- الجنى الداني في حروف المعاني للمراي - تحقيق / فخر الدين قباوة - ط دار الكتب العلمية .

- جواهر البلاغة للهاشمي - تحقيق حسين نجار محمد - مطبعة الآداب
١٤٢٠ هـ .

- حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص - ط دار الكتب العلمية - بيروت
- لبنان .

- حاشية الصبان على شرح الأشموني - ط دار إحياء الكتب العربية .
- خصائص التراكيب د / محمد محمد أبو موسى - ط مكتبة وهبه - الطبعة
الرابعة ١٩٩٦ م .

- الداء والدواء لابن القيم - ط دار التقوى للتراث - ط أولى ٢٠٠٠ م .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - تحقيق / محمود محمد شاكر -
ط مطبعة المدني بالقاهرة .

- دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان - ط دار الكتب العلمية -
بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٥ م .

- روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم - تحقيق / عبد الله المنشاوي -
مكتبة الإيمان بالمنصورة .

- زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم - ط دار الريان للتراث - ط أولى
١٩٨٧ م .

- سنن أبي داود - ط دار الكتب العلمية .

- سنن ابن ماجه - ط دار الكتب العلمية .

- سنن النسائي - ط دار الكتب العلمية .

- شرح التسهيل لابن مالك - تحقيق / عبد الرحمن السيد - مطبعة هجر
للطباعة والنشر - ط أولى ١٩٩٠ م .

- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للإمام الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي - ط دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .
- شرح الكافية البديعة في علوم البلاغية ومحاسن البديع لصفي الدين الحلبي - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- شعب الإيمان للبيهقي - ط دار الكتب العلمية تحقيق / محمد السعيد بسيوني .
- صحيح البخاري - ط دار المنار .
- صحيح مسلم بشرح النووي - تحقيق / عصام الصبابطي - ط دار الحديث - الطبعة الأولى ١٩٩٤ م .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام العيني - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- عون المعبود شرح سنن أبي داود - تحقيق / عبد الرحمن محمد عثمان - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة - الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري - تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي - ط دار الغد العربي .
- القصص في الحديث النبوي د / محمد حسن الزبير المطبعة السلفية بالقاهرة - ط أولى ١٩٧٨ م .
- لمحات من هدى النبوة د / محمود شيخون - ط دار الطباعة المحمدية - ط أولى ١٩٧٤ م .
- المحبة في القرآن والسنة د / حسن أمين مصري - مطبعة الحسين الإسلامية .
- مختار الصحاح للرازي - المطبعة الأميرية بالقاهرة .
- المطول لسعد الدين التفتازاني - ط دار الكتب العلمية - ط أولى ٢٠٠١ م .

- معالم السنن للخطابي - ط المكتبة العلمية - ط ثانية ١٩٨١ م .
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي - ط دار ابن كثير - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٦ م .
- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- النحو الوافي لعباس حسن - ط دار المعارف - الطبعة التاسعة .